

عبر وولالات

من سورة يوسف

إعداد

د. عبد الله بن علي بصفر

دار نور المكتبات

جميع حقوق الطبع محفوظة
الطبعة الأولى
١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م

دار الفكر للدراسات والبحوث

السعودية - جدة - تحت السلامة - بجوار جامع الشيعي
هاتف وفاكس : ٦٨٣٨٠٥١ - صرّيب : ٤٠٣٧٤ - الفهر البريد : ٢١٤٩٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

m

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على المبعوث رحمةً
للعالمين .. وبعد :

فاخترت ضمن خطب جامع منصور الشيعي إلقاء الضوء والتأمل في سورة
يوسف **U** ، الكريم ابن الكريم ابن الكريم عليهم السلام ؛ أولاً لما
فيها من العبر العظيمة والدلالات الكبيرة من أن العاقبة للمتقين كما قال تعالى في
هذه السورة : { إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ } ^(١) ،
وهذا درس مهم لكل مؤمن لأن الحياة من طبيعتها التنغيص والمشاكل والهموم ،
وكما جاء في الأثر : (ما قرأها محزون إلا صرف الله حزنه) وخاصة الدعاة إلى
الله **U** الذين يقومون بهذه المهمة العظيمة ؛ مهمة الأنبياء والمرسلين ، ويتعرضون
لما يتعرضون له من تعب ونكد ، فلا بد للمؤمن من الصبر ، والصبر كما قال
عليه الصلاة والسلام : (الصبر ضياء) ^(٢) ، وكما قال **U** : { إِنَّ اللَّهَ مَعَ

(١) يوسف : ٩٠ .

(٢) رواه مسلم (٢٢٣) من حديث أبي مالك الأشعري **t** مرفوعاً .

الصَّابِرِينَ ﴿١٢٣﴾ { فلعل هذه التأملات تعين المؤمن على التدرب على الصبر ، ولا شك أنه لا يمكن لمسلم أن يقرأها إلا ويبكي ، وهذا البكاء يولد التأثير ، وهذا التأثير يأتي بالتغيير ، والذي به تتجدد الحياة ، وبهذا التجدد يواصل المؤمن سيره في هذه الحياة من نجاح إلى نجاح ، ومع هذا النجاح يتحقق الفلاح والهداية والصلاح الذي يريده الله سبحانه وتعالى لخير الإنسان على وجه هذه الأرض .

نسأل الله تعالى أن يحقق هذه الفوائد عند التأمل والتدبر في هذه السورة العظيمة ، والقصة الكريمة .

وكتبه :

د. عبد الله بن علي بصفر



تمهيد

أما بعد فيا أيها الأخوة الكرام ويا أحباب رسول الله **e** سنتحدث بإذن الله تبارك وتعالى عن وقفات مع سورة يوسف **u** ، نستلهم منها دروساً وعبراً ودلالات ، نستعين بها في مواجهة هذه الحياة المليئة بالمنغصات والمكدرات.

هذا هو النبي الكريم ، ابن النبي ، ابن النبي ، كما قال ذلك الصادق المصدوق عليه الصلاة والسلام ؛ فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ، عن النبي **e** قال : (الكريم ، ابن الكريم ، ابن الكريم ، يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام)^(١).

وسورة يوسف سورة عظيمة ، وسورة كريمة ، وهي مكة نزلت على النبي **e** في مكة ، وجاء أيضاً أنها نزلت عليه في عام الحزن الذي توفيت فيه خديجة رضي الله عنها ، وتوفي فيه عم النبي الذي كان يدافع عنه ويحامي عنه ؛ فَسُمِّيَ ذلك العام بعام الحزن ، فترلت هذه السورة بلسماً شافياً ، وتطميناً وتأنيساً لرسول الله **e** ، وتذكيره بالأنبياء السابقين ، وما نزل بهم من البلاء والمحن ، ولذلك كان عطاء بن رباح — وهو أحد علماء التابعين وتلميذ عبد الله بن عباس **t** — يقول : ما استمع أحد إلى سورة يوسف إلا استراح وخرج مابه من هم ومن غم .

(١) رواه البخاري (٣٣٨٢) .

فهي مؤنسة لمن كان في كرب فقرأها فرج الله عنه كربه، ونَفَسَ عنه ذلك الهم، وصرف عنه ذلك الغم، وعلم وتيقن أن بعد العسر يسراً، وأن الفرج مع الصبر، وأن النصر مع الصبر.

سبب نزول السورة:

ولقد جاء في بيان سببها: أن نفراً من اليهود أرسلوا إلى مشركي مكة ليمتحنوا رسول الله ﷺ، فقالوا للمشركين: سلوه عن نبي من أنبياء الله خرج من أرض الشام إلى أرض مصر؟ سلوه عنه وعن أخباره؟ فلما سألوه أهل مكة، أنزل الله تبارك وتعالى عليه هذه القصة كاملة غير مجزأة، مع أن هناك قصصاً كثيرة نزلت في القرآن مجزأة جزء منها هنا وجزء منها هناك ولكن هذه السورة نزلت كاملة مجملة في بيانها وتفصيلها وذكر الإمام القرطبي أن في ذلك حجة ودليلاً على أن الله تبارك وتعالى تحداهم بأن يأتوا بمثل هذا القرآن مفزاً أو مجتمعاً فلم يأتوا به لا هكذا ولا هكذا^(١).

وأيضاً جاء في سبب نزولها: أن الصحابة رضوان الله تبارك وتعالى عليهم وهم في مكة قالوا لرسول الله ﷺ بعدما نزل عليهم شيء كثير من القرآن، قالوا: يا رسول الله! لو قصصت علينا؟ فأنزل الله تبارك وتعالى: { تَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ }^(٢).

(١) انظر <تفسير القرطبي> (٩ / ٧٩، ٨٠) ط. دار الكتب العلمية. وهو هنا يتصرف منه.

(٢) <تفسير القرطبي> (١ / ٧٩)، و<تفسير ابن كثير> (٤ / ١٨٢٤) ط. ابن حزم.

بدايات السورة :

وتبدأ هذه السورة الكريمة بقوله **U** بعد أعوذ بالله من الشيطان الرجيم { بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ } { الرَّ } وقد ذكر العلماء أن هذه الحروف لها معانٍ كثيرة ، ومن أشهرها وأوضحها : أن الله تحدّى بها العرب الذين كانت لديهم الفصاحة والبلاغة والبيان ، فقال لهم : إن هذا القرآن المعجز مُركَّبٌ من هذه الأحرف (ألف — لام — راء) وغيرها من حروفكم ، فلتأتوا بمثله ؛ وهي لغتكم وأنتم سلاطين الأدب واللغة ، والفصاحة والبيان ، فعجزوا ؛ فكان هذا دليلاً على عظمة كتاب الله تبارك وتعالى وتحديه لهم .

{ يَلَاكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ } وتلك اسم إشارة للبعيد للتعظيم ، ولرفع شأن القرآن الكريم { إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ } لعلكم تعقلون وتفهمون يا معشر العرب ، فلم يزل القرآن بلغةٍ أخرى فيستعجم عليكم ، فلم تفهموه ولم تعوا معناه ، ولكنه نزل بلغتكم .

قال الحافظ ابن كثير في تفسير قوله تعالى : { إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ } : (وذلك لأن لغة العرب أفصح اللغات وأبينها وأوسعها ، وأكثرها تأدية للمعاني التي تقوم بالنفوس ، فلهذا أنزل أشرف الكتب بأشرف اللغات على أشرف الرسل ، بسفارة أشرف الملائكة ، وكان ذلك في أشرف بقاع الأرض وابتداء إنزاله في أشرف شهور السنة وهو رمضان ، فكمل من كل الوجوه ، ولهذا قال تعالى : { نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ } ،

أي : بسبب إيجائنا إليك هذا القرآن (١).

أحسن القصص :

{ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ } سَمَّى الله هذه السورة أحسن القصص لما احتوته من العجائب ، ولما اشتملت عليه من الكَرْب والفرج ، ومن الفقر والغنى ، ومن ذكر العبيد وعامة الناس ، والفقراء والسلطين ، ومن ذكر أمور الدنيا وأمور الآخرة ، ومن ذكر الخير والشر ، فاشتملت على معانٍ وعبر عظيمة لا غنى للمسلم عنها ، وعن فهمها ، فَسَمَّاها الله تبارك وتعالى : أحسن القصص .

{ يَمَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَفِيلِينَ } لم تكن عارفاً بهذه القصة قبل أن يسألك هؤلاء الناس عنها ، ولكن الله تبارك وتعالى بينها لبني إسرائيل ، وبينها لمشركي مكة ، فكانت كما كانت في كتبهم — في التوراة — بل وأكثر وتفصيلاً ؛ فقد زادها الله تبارك وتعالى بياناً وإيضاحاً ؛ إفحاماً لهم وتعجيزاً.

يوسف e والرؤيا :

ثم قال U : { إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ } رأى هذه الرؤيا وقد كان عمره عشر سنوات U ، فكانت إيذاناً من الله تبارك وتعالى بظهور كرمه في هذا العبد ، ويوسف U هو أخو بنيامين من أم واحدة ، وبقية إخوته العشرة من أمهات مختلفة ، من الإماء

(١) <تفسير ابن كثير> (٤ / ١٨٢٤) .

ومن غير الإماء ، أما أم يوسف U فهي رحيل ، وهي آخر من تزوجها يعقوب U ، فولدت له يوسف ، ثم ولدت له بنيامين ، وماتت في نفاس بنيامين ، فلذلك تعلق قلب يعقوب بيوسف عليهم السلام أولاً لأنه صغير ، وثانياً لأن أمه قد ماتت ، فتعلق قلبه بهؤلاء الضعاف U ، ويقال إن الإنسان إنما يتعلق قلبه بالصغار من ولده أكثر من غيرهم ؛ كما قالت أم الحسن : ثلاث من الصغار أو من الأطفال يتعلق القلب بهن : الأول : الطفل الصغير حتى يكبر ، والثاني : المسافر حتى يعود ، والثالث : المريض حتى يشفى ، فالأب إنما يحن ويميل قلبه لأبنائه إذا كانوا من هؤلاء الثلاثة .

{ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ

لِي سَاجِدِينَ } أحد عشر كوكباً : إخوته وكانوا أحد عشر رجلاً ، والشمس والقمر : أبوه وأمه ، كما فسرت هذه القصة في آخرها .

قال ابن عباس وقتادة : الكواكب إخوته ، والشمس أمه ، والقمر أبوه .

وقال قتادة أيضاً : الشمس خالته ، لأن أمه كانت قد ماتت ، وكانت

خالته تحت أبيه ^(١) .

كلُّ ذي نعمةٍ محسود :

ويوسف U — كما ذكرنا — كان في سنٍ صغيرة ، ولكن الذي آتاه الله

من العلم والحكمة ، عرف أن لهذا الطفل شأنًا ، وأن لهذا الفتى الصغير أمراً

(١) <تفسير القرطبي> (٩ / ٨١) .

عظيماً فقال: { يَنْبَغِي لَا نَقْصُصَ رُءْيَاكَ } و (الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة)^(١)؛ الرؤيا الصالحة كما كانت لدينا e ، ولم يبق من آثار النبوة إلى اليوم إلا الرؤيا الصالحة ، فهي من آثار النبوة الباقية إلى اليوم وإلى يوم القيامة .

{ قَالَ يَنْبَغِي لَا نَقْصُصَ رُءْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا } عرف حسدهم ، وعرف منافستهم لهذا الغلام الذي سيمتاز عليهم مع صغره ، ولذا أمره ألا يظهر أمر رؤياه لإخوته لأنها نعمة عظيمة يحسدونه عليها ؛ { إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ } وهذا من إلهام الله U ليعقوب U { وَكَذَلِكَ يَجْنِيكَ رَبُّكَ } هذا من كلام يعقوب يواصل حديثه مع ولده الصغير ، ويشّره بالنبوة { وَكَذَلِكَ يَجْنِيكَ رَبُّكَ } يصطفيك ويختارك ؛ فيشير به بأنه سيكون نبياً في مستقبل أيامه { وَكَذَلِكَ يَجْنِيكَ رَبُّكَ } هذه الأولى ، { وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ } هذه الثانية ، فيكون عالماً بتفسير الرؤيا ، والثالثة { وَنَبِّئُكَ نِعَمَتَهُ عَلَيْكَ } بالملك والمال ، والعز والسلطان { وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ } يعني بالنبوة من الله تبارك وتعالى ، فأكرمه الله U بالنبوة ، وتأويل الأحلام ، وبالملك والسلطان U { إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ } عليم بمن يختار لهذه النبوة ، ومن يصطفى ومن يجتبي ، ولذلك ما كان أخوة يوسف أنبياء ، وإنما يوسف U فقط هو النبي ابن النبي ابن النبي ، أما إخوانه فما كانوا أنبياء ، ولا مرسلين لأن الله U اصطفى يوسف U من بينهم .

(١) رواه البخاري (٦٩٨٩) من حديث أبي سعيد الخدري t مرفوعاً.

غِيْرَةُ أَخُوْةِ يُوْسُفَ e وَمَكْرُهُمْ :

{ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ ءَايَاتٌ لِّلْمُتَلَدِّينَ } ليست آية ؛ بل آيات وعبر وعظات { إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا } يوسف وبنيامين ، لما يروا من اهتمام والدهم بهما ، وعنايته بهما ، وكيف لا يعتني بهما وقد فقدنا أمهما وهما صغيران^(١)؟! ، وقد عرف أن أحدهما وهو يوسف U سيكون نبياً ، وسيكون له شأن؟! فكيف لا يعتني به؟! ، وكيف لا يهتم؟! { وَنَحْنُ عُصْبَةٌ } ونحن أقوى وأمنع وأنفع إلى أبنينا من هذا الغلام الصغير ، والعصابة التي تتعصب بعضها مع بعض فتكون قوة متناصرة { إِنَّ أَتَيْنَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ } أي : إن أبانا لفي خطأ بهذا التفضيل ، وليس معنى: { لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ } هنا بمعنى الضلال في الدين ، وإلا لكان هذا كفراً منهم ، لأن يعقوب U نبي من أنبياء الله تبارك وتعالى .

ثم قالوا : { أَقْتُلُوا يُوسُفَ } قَسَتْ قُلُوبُهُمْ إِلَى دَرَجَةٍ أَنْ يَقْتُلُوا أَخَاهُمْ ، بلغ الحقد والحسد بهم مَبْلَغاً عَظِيْماً ، وهكذا يكون الحسد والعياذ بالله U ، إذا تسلط على الإنسان أعمى بصره وبصيرته ، فيجمد قلبه ويقسو ويشدد حتى لا يكاد يرى الطريق السوي أبداً ، ولأجل هذا جاءت شريعة الإسلام بالعدل بين الأولاد ، والمساواة بينهم ، وعدم تمييز بعضهم على بعض ، لا في مظاهر الحب ولا في العطاء ، لأن التمييز بينهم يؤجج العداوات والأحقاد ، والغل والحسد .

(١) انظر < البداية والنهاية > (١ / ١٩٧) ط. مكتبة المعارف بيروت .

{ أَقْبَلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا } ارموه في الصحراء البعيدة حتى يموت ويهلك من الجوع والعطش { يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ } يتفرغ لكم أبوكم ، ويعتني بكم ، ويهتم بكم ، ويكون أكثر لقاءه معكم ، ثم توبوا بعد ذلك !!.

وهذا الذي قاله إخوة يوسف **u** من وساوس الشيطان ؛ يوسوس للإنسان : الآن سافر واعصِ ربك ، ثم إذا رجعت تأتي بعمرة ، وتطيع الله سبحانه وتعالى ، وتستغفر وتتوب !! ، هذا من مكائد الشيطان ، فإن الله تبارك وتعالى هو العليم وحده : هل يتمكن هذا الإنسان من التوبة أم لا ؟! ولو نوى الإنسان التوبة بعد المعصية ؛ هل سيدركها ؟! وهل ضمن أنه بعد ما يذنب يعود سالماً ؟! ويتوب إلى الله تبارك وتعالى ؟! وأن الله سيتقبل توبته تلك ؟! { أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ } ^(١) المؤمن لا يأمن من مكر الله تبارك وتعالى ؛ كما قال سيدنا أبو بكر الصديق **t** وأرضاه : لو أن إحدى قدمي في الجنة والأخرى خارجها ما أمنت مكر الله .

{ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ } وهو كبيرهم { لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْقَاهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنْتُمْ فَاعِلِينَ } دلهم على رأي ألهمه الله تبارك وتعالى إياه ؛ أن لا يقتلوه وأن يلقوه في غيابة الجب ، والجب هو البئر ، وغيابة الجب : أي المكان الذي يغيب فيه فلا يراه أحد ، يُرمى في البئر ، في المكان الذي لا يرى

(١) الأعراف : ٩٩ .

فيه أحد ، قال الحافظ ابن كثير رحمه الله : غيابت الحب ، أي : قعره على راعوفته ؛ وهي الصخرة التي تكون في وسطه يقف عليها المائح ؛ وهو الذي يتزل ليملي الدلاء إذا قلّ الماء^(١) . { يَلْقَظُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ } تأتي قافلة فتمر فتأخذ هذا الغلام ، ويعدونه عنكم ، وتستريحون منه .

وعادوا يحاولون مع أبيهم ؛ ويتوددون إليه ، حتى يستخرجوا منه يوسف U .

مؤامرة للخلاص من يوسف e :

{ قَالُوا يَتَّبِعْنَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَصْحُونَ } جاءوا بالكلام اللين الكاذب ؛ وهكذا يكون الكذاب والمحتال الذي يأتي إلى الناس فيظهر إليهم أنه طيب ، وأنه صادق ، وأنه يريد الخير ؛ فكذلك يقول هؤلاء : { وَإِنَّا لَهُ لَنَصْحُونَ } أي أننا نريد نصيحته ، نريد له الخير { أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَفِظُونَ } الرتع : هو كثرة الأكل من الفواكه والأطعمة في البادية وفي البرية { وَإِنَّا لَهُ لَحَفِظُونَ } وكذبوا على الله ، وكذبوا على نبي الله ، وأعطوا المواثيق ، وخانوا عهد الله وعهد نبيه .

{ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنَّ تَذْهَبُوا بِهِ } ما تعودت أن أفارق يوسف ، ما تعودت على فراقه فهو معي ليلاً ونهاراً { قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنَّ تَذْهَبُوا بِهِ } وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ { أعطاهم الحجة بلسانه ، { وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ } وأخذ من هذا أن الإنسان إنما يُسلطُ عليه ما يخافه ، ولو أنه لم

(١) < البداية والنهاية > (١ / ٢٠١) .

يخف غير الله لم يُسلط عليه شيء . ويؤخذ منه كذلك : أنه لا ينبغي لأحد أن يذكر مخاوفه عند من لا يوثق من محبته ونصحه ، لئلا يستغلها ضده ، وينفذ إلى أذاه من خلالها.

وقيل : إنه رأى ذلك في المنام U ، رأى يعقوب أن يوسف يأكله الذئب { قَالُوا لَيْنَ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذَا لَخَيْرُونَ } بعد هذا الكلام أسروا إلى يوسف U بأن يخرج معهم ؛ فطلب يوسف من أبيه أن يسمح له بالخروج مع إخوانه ، فلما ذهبوا به وأخذوه من أبيه ، ووضعوه على أكتافهم ، وهم يكرمونه ويقبلونه ، وأخذ يعقوب ينظر إليهم ، ويرى هذا التكريم ، وهذه المحبة ، حتى غابوا عن أنظار يعقوب ؛ وعندها ألقوه على الأرض ، وضربوه وشتموه ، فتعجب يوسف U من تغيرهم وتغير أخلاقهم ، كيف كانوا؟! وكيف أصبحوا الآن؟! وهكذا الحاسد ، وهكذا ذو الوجهين !!، وكلما التجأ يوسف e إلى واحد من إخوانه ضربه ، فليجأ إلى الآخر فيضربه فليجأ إلى الآخر فيضربه ، وهكذا ؛ فعند ذلك عرف أنهم أجمعوا أمراً ، فلما ذهبوا به وأجمعوا على أن يجعلوه في غيابة الحب ، وألقوه في وسط البئر وألقوه في الدلو ونزل حتى وصل في آخر البئر على صخرة فجلس عليها ، ولم يزل في الماء { فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَاجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غِيَابِ الْحَبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَجِّيَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ } نزل عليه جبريل U ليطمئنه بأن هذا من امتحان الله ومن ابتلاء الله ، وأن بعد هذا الضيق فرجاً ، وأنتك بعد هذا الفرج ستخبرهم بأمرهم هذا ، وخبرهم هذا ، وفعلهم هذا ، وهم لا يشعرون ، وما أجمل أن يأتي التطمين من الله تبارك وتعالى

وقت المحنة ، كما كان النبي e في غار ثور لما هاجر عليه الصلاة السلام .
 { وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ } وقيل إنه كان في عمر (١٢ سنة) في ذلك اليوم الذي أُلقي فيه في البئر .

{ وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ } بعد المغرب جاءوا في الظلام حتى تكون أدوات الجريمة مخفية وغير واضحة، وغير ظاهرة، وهم { يَبْكُونَ } بكاء الكذب ، وليس بكاء الصدق، ولذلك شريح القاضي؛ لما جاءت أمراة تتقاضى عنده، وتشتكي ، وكانت تبكي وتبكي وتبكي، فقال له أحد الجالسين : إنها مظلومة . فقال له شريح : وهؤلاء إخوة يوسف جاءوا أباهم عشاء يبكون ، لا أقضي بالبكاء ، ولكن أقضي بالحق والعدل ؛ ولهذا لا ينبغي أن يتسرع المرء في الحكم متأثراً بالعواطف ، بل يتأني ويسمع من الأطراف كلها ، ويتفحص الأدلة والقرائن ، حتى يتبين له وجه الصواب.

{ وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ } قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ } فأثبتوا على أنفسهم أنهم كانوا كاذبين وليسوا صادقين بهذه القولة : { وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ } .

{ وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ } ذبحوا شاةً وجعلوا الدم على قميص يوسف ، فلما نظر يعقوب u في ذلك القميص ، ولم ير فيه شقاً ! ولم يرى فيه قطعاً أو تمزيقاً !! رآه قميصاً سليماً تعجب !! وقال : ما أحلم هذا الذئب على ابني ؟! يأكل ابني ولا يشق قميصه !! فتعجب عند ذلك وقال لهم : { بَلْ

سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ } وهذا القول قالته السيدة عائشة رضي الله عنها لما أتهموها بالحرام ، أتهموها رضي الله عنها وأرضاها فقالت : لا أقول لكم إلا كما قال يعقوب U { فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ } فجاءها الفرج بعد ذلك من الله تبارك وتعالى ، كما جاء الفرج ليوسف U .

ويؤخذ من هذه الآية أن الكذب حبله قصير ، وأن الكذاب سينكشف أمره إن عاجلاً أو آجلاً ، وأن الخائن الماكر ضعيف العقل ، فاسد التدبير ؛ وإلا فكيف يُعقل أن يأكل الذئب يوسفَ دون أن يمسَّ قميصه بأذى ؟! فلا يقطع منه قطعة واحدة ، ولا يمزقه ولا يشقه !!.

خلاص يوسف e من البئر :

{ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ } أي قافلة { فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ } الذي يجلب لهم الماء { فَأَدْلَى دَلْوَهُ } فلما رأى يوسف هذا الدلو تمسك فيه فخرج من البئر ، فلما رآه ذلك الوارد { قَالَ يَبِئْسَ رَجُلٌ هَذَا غُلْمٌ } وفي قراءة قال (يا بشراي) يا فرحتي { هَذَا غُلْمٌ وَأَسْرُوهُ بَضْعَةً } اعتبروه بضاعة وأخفوه عن أعين الناس ، حتى لا يأتي إنسان من أقاربه فيأخذه .

وهنا نتساءل ، لماذا لم يطلب يوسف U أن يعود إلى أبيه ؟ ولماذا لم يتكلم بأمر إخوته وأهم هم الذين ألقوه في البئر ؟ قيل : إنه سكت ، ووافق على أن يباع ويذهب إلى أرضٍ أخرى ، لأنه كان يعلم أنه لو عاد إلى إخوانه لقتلوه ،

فلذلك أثر البيع على القتل^(١). { قَالَ يَبْشُرِي هَذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ
بِمَا يَعْمَلُونَ } وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ { باعوه بثمن زهيد ،
بعشرين درهماً كما ذكر المفسرون^(٢) حتى لا يشك أحد في أمرهم ، وحتى
يتخلصوا من هذه المسألة ، حتى لا يطالبهم أحد بعد ذلك ، وكانوا فيه من
الزاهدين ، وهم لا يعرفون قدره ولا مقداره ، ولا أنه سيكون من أنبياء الله ، ولا
أنه سيكون من المصطفين الأخيار .

{ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ } أي بعد أن باعوه على رجل في مصر ،
وهو العزيز ؛ وزير المالية ، أي أن الأموال والأراضي والثمار ، كل ذلك تحت
يده ؛ ويسمى عزيزاً فهو الذي اشتراه ، وكان عقيماً ، واسمه إطفير بن روحيب ،
وزوجته اسمها زليخا.

{ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ } قال أحد المفسرين
أن أفرس الناس ثلاثة : أولهم هذا العزيز ؛ تفرس في يوسف **u** فقال لامرأته :
{ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا } ، والثانية : امرأة مدين التي
جاءت مع موسى **u** ، وقالت : { يَتَأْتِيَ أُسْتَجِرُهُ إِنْ خَيْرَ مِنْ أُسْتَجَرْتَ
الْقَوِيُّ الْأَمِينُ }^(٣) . والثالث : سيدنا أبو بكر الصديق **t** الذي استخلف عمر
t لعلمه بعدله فكان كما علمه وتفرس فيه وأكثر **t** وأرضاه .

(١) انظر < تفسير القرطبي > (١٠٢ / ٩) .

(٢) قال ذلك ابن مسعود وابن عباس والسدي وقتادة وعطية العوفي ، وقال مجاهد : اثنان وعشرون درهماً . وقال عكرمة ومحمد بن إسحاق : أربعون درهماً . فالله أعلم < البداية والنهاية > (٢٠٢ / ١) .

(٣) القصص : ٢٦ .

قال: { أَكْرَمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَنْ يَفْعَمَا أَوْ نَخْذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ } أصبح في بيت وزير المالية ، أصبح هو الأمر والناهي ، وهو المكرم والمعزز في هذا البيت ، بعد أن أُخرج من البئر ، وبعد أن نجاه الله منه ، { وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ } من تفسير الرؤيا { وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ } .

يوسف e في بيت العزيز :

قال الحق تبارك وتعالى : { وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ؕ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ } بعد أن نجاه الله تبارك وتعالى ، أخرجته من أول الحن ، وهي محنة إلقائه في البئر ، أخرجته الله تبارك وتعالى من تلك المحنة ، وأسكنه كما ذكرنا في قصر العزيز ، وهو وزير المال عند فرعون ، فعاش عيشةً هنيةً كلها رغد ، وكلها راحة ، وكلها طمأنينة ورفاهية .

قال U : { وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ } ^(١) قال المفسرون : أي بلغ (ثماني عشرة سنة) أي : تجاوز سن البلوغ ، ووصل إلى سن اكتمال العقل ، وإلى سن اكتمال الجسم ، فاكتمل عقلاً وجسماً . { وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ؕ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا } آتيناه

(١) قال الحافظ ابن كثير في < البداية والنهاية > (١ / ٢٠٣) : وقد اختلفوا في مدة العمر الذي هو بلوغ الأشد ، فقال مالك وربيعة وزيد بن أسلم والشعبي : هو الحلم . وقال سعيد بن جبير : ثماني عشرة سنة . وقال الضحاك : عشرون سنة . وقال عكرمة : خمس وعشرون سنة . وقال السُدِّي : ثلاثون سنة . وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة : ثلاث وثلاثون سنة . وقال الحسن : أربعون سنة . ويشهد له قوله تعالى : { حَقَّقَ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً } ا.هـ .

حكماً ، أي : النبوة . وعلماً ، أي : علم تأويل الأحلام ، منةً من الله تبارك وتعالى وكرماً { وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ } الذين أحسنوا فيما بينهم وبين الله ؛ والإحسان : أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك ؛ أن تعبد الله U وأنت تراقبه في كل حركة وفي كل سكونة ، أن تراقب ربك تبارك وتعالى ، وأنت على يقين أن الله ينظر إليك ويراك سبحانه وتعالى { وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ } كذلك نجزي من أحسن فنجعله من الصالحين ، ونؤتيه من العلم ، ومن الحكمة ، كما آتيناه من قبله من المحسنين .

محنة الشهوة والإغراء :

ثم تأتي المحنة الأخرى لسيدنا يوسف U ، وهي أشد من المحنة التي قبلها محنة البئر ، وأشد من المحنة التي بعدها محنة دخوله في السجن ، فهذه المحنة هي : محنة إغرائه بالفاحشة ، ثم اتهامه بها .

قال سبحانه وتعالى : { وَرَاودَتْهُ أَلْفَىٰ هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ غَلَقَتْ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ } لما اكتمل في جسده وفي عقله ، وظهر جماله U في أكمل صورة ، وأتمها ، عند ذلك راودته تلك المرأة — زليخا — ؛ زوجة العزيز إطفير بن روحيب ، لما رأت من جماله ، ولما رأت من صفاته الحسنة ، ولم تكن على دين ، ولا على إيمان ، ولا على تربية ، بل نشأت كما ينشأ الكفار والمترفون ، على الفسق والفجور والعياذ بالله تبارك وتعالى .

{ وَرَوَدَتْهُ الْمَلَائِكَةُ بِبَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَخَلَقَتِ الْبَابَ } { أحكمت إغلاق

الأبواب حتى يتهياً لها ما تريد ، وحتى يطمئن وتطمئن من أنه لن يدخل عليهما أحد ، تريد أن تدخل على قلبه الطمأنينة { وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ } بمعنى هلم وتعال إلى الفحشاء ، والعياذ بالله U ؛ فما كان من نبي الله تبارك وتعالى ، الذي آتاه الله العلم والحكمة ، إلا أن قال هذه الكلمة العظيمة { قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ } أول كلمة تفوه بها أمام الشهوات ، وأمام الملذات ، وأمام المغريات .

ولذلك قال e : (سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله — وذكر منهم — : ورجل دعت امرأته ذات منصب وجمال — فتنتين في آن واحد — فقال: إني أخاف الله) (١).

فما كان من نبي الله يوسف U ، إلا أن قال : { قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَوْلَايَ } ربي : أي : العزيز ؛ فكلمة الرب بمعنى الصاحب ، وبمعنى المربي ، وبمعنى المالك ، فهنا معناها : صاحب نعمتي ، الذي رباني ، واشتراني ، وجعلني أسعى في هذا البيت آمراً وناهياً ومطاعاً في هذا السلطان ، وفي هذا الملك ؛ { إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَوْلَايَ } كيف أخونه فأجمع جنايتين في جنابة واحدة : الخيانة ، ثم الفاحشة والعياذ بالله تبارك وتعالى ، ولذلك كان الزنى بحليلة الجار بعشر زنيات غيرها والعياذ بالله كما أخبر بذلك النبي e ؛ لأن جارك يأمنك ، والصاحب كذلك يأمنك ، فإذا جاء الجرم منهم كان مضاعفاً عشرة أضعافٍ والعياذ بالله U .

(١) رواه البخاري (٦٦٠) ، ومسلم (١٠٣١) .

قال : { إِنَّهُ رَفِيعُ الْمَوَازِي } كيف أقابل الإحسان بالإساءة ؟!
 { إِنَّهُ لَا يَفْلِحُ الظَّالِمُونَ } فالظالم لا يفلح ، الغادر لا يفلح ، والخائن لا
 يفلح ، لأن هذا العمل ليس فيه فحش فقط ، بل فيه غدر وخيانة أيضاً .

ثم يقول U : { وَلَقَدْ هَمَّتْ يَوْفَى وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ
 كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ } قال
 المفسرون : أما قوله U : { وَلَقَدْ هَمَّتْ يَوْفَى } فاهم منها بمعنى العزم الأكيد ،
 فهي لم تكتفِ بأن تطلب منه ، وتراوده ، والمراودة بمعنى : الطلب برفق ولين ،
 بل انتقلت من الرفق واللين إلى الشدة ، وإلى الهم ، وهو العزم الأكيد ، ثم انتقلت
 بعد ذلك إلى التتبع { وَأَسْتَبَقَا الْبَابَ } فأخذ يوسف يجري وهي تجري من
 ورائه ؛ تأكيد على عزمها وتصميمها على تنفيذ مخططها اللئيم { وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا
 أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ } لم يعلّق على همّها ، وعلق على هم يوسف ، فلما ذكر هم
 زليخا قال : { هَمَّتْ يَوْفَى } ولما ذكر هم يوسف U قال : { وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا
 أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ } قال المفسرون في الآية تقديم وتأخير ، أي : لو لم ير برهان
 ربه لهمّ بها ، كما تقول في كلامك العادي : سقطت لولا أن حملي فلان من
 الناس ، وهكذا في قوله U { إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا }
 أم موسى U لما ذهبت ترضعه عند فرعون ، إن كادت لتبدي به كادت أن تظهر للناس
 أنها أمه وأنه ابنها { إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا } (١) أي :

(١) القصص : ١٠ .

لولا أن ربطنا على قلبها لأبدت وكشفت نفسها ، وقالت للناس : هذا ابني ، وليس ابن فرعون . وهذه الآية تماماً مثلها { وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ } .
فما هو برهان ربه الذي رآه ؟ قال المفسرون : برهان ربه أنه رأى يعقوب أباه U في صورة أمام عينيه وهو يعض إصبعه ، وقيل : إنه رأى زوجها ؛ زوج زليخا ، وقيل : إنه رأى آية مكتوبة في سقف ذلك البيت من كتاب الله تبارك وتعالى ، فكان ذلك برهان من الله U ، وقيل غير ذلك ^(١) .

المهم أنه رأى من الله تبارك وتعالى البرهان والمانع والحجة التي لم تجعله يهم ، ولم تجعله يقع ، وهكذا المؤمن ، وهكذا الصالح ، وهكذا التقي النقي ، حتى لو فكّر يوماً من الأيام في الوقوع في الفاحشة ، فإن الله تبارك وتعالى يضيع عليه الطريق ، ويلهمه طريقاً آخر ؛ ويدله على الخير ، ولا يدلّه على الشر سبحانه وتعالى ، فكيف بنبي من أنبياء الله تبارك وتعالى .

براعة يوسف e من الهمّ بالسوء :

قال العلماء في هذه الآية : { وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ } : ذكر الله U في سورة يوسف عشرة أدلة تدل على أنه ما همّ بالحرام ولا وقع فيه عليه الصلاة والسلام :

أولها : قوله سبحانه وتعالى : { قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوًى } فكان أول كلمة قالها أن استعاذ بالله U ، ومن استعاذ بالله أعاده الله .

(١) انظر < تفسير ابن كثير > (٤ / ١٨٣٦) ط. ابن حزم .

الدليل الثاني : قوله سبحانه وتعالى : { وَأَسْبَقَ الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصُهُ مِنْ دُبُرٍ } جريه واستبقاه بكل ما يملك من القوة في الجري ، دليل على فراره من هذا الذنب ، وليس دليلاً على إقباله عليه .

الدليل الثالث : قوله U : { قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ } فَضَّلَ السِّجْنَ عَلَى الزَّانَا { وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ } .

الدليل الرابع : قوله جل وعلا : { وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا } فالله U يثني عليه بالنبوة ، ويثني عليه بالعلم ، ويقول : { وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ } وأثني عليه أيضاً في قوله : { كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ } وكلمة السوء يدخل فيها الهم بالفحشاء ، والعزم على الفحشاء ، وفعل الفحشاء ، فالله U يقرر في القرآن الكريم : { كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ } ، وقوله تبارك وتعالى عن إبليس : { فَبِعِزَّتِكَ لأُعَذِّبَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ } { إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ } ^(١) ويوسف من هؤلاء المخلصين كما ذكر الله تعالى .

الدليل الخامس : قوله تبارك وتعالى : { وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا } كما سنبين فيما سيأتي ؛ فشهادة هذا الشاهد دليل على براءته .

الدليل السادس : قوله U : { قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ } بعد أن خرج من السجن { أَنَّنِي حَصْبَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوِدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ } لو

(١) ص : ٨٢ - ٨٣ .

كان فيه شائبة من فعل الفاحشة ، أو الهم بها ، أو العزم عليها ، أو الموافقة ؛ لما سكنت امرأة العزيز ، ولكنها نَفَتْ عنه التهمة بأكملها .

الدليل السابع : قوله تعالى : { قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاودْنَاهُ عَنْ نَفْسِهِ فَوَسْوَسَ } وهذا تأكيد من امرأة العزيز أمام النسوة جميعاً ، على نجاته وبرأته من هذا الجرم .

الدليل الثامن : قوله سبحانه وتعالى : { فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُمْ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ } .

الدليل التاسع : قوله U : { ثُمَّ بَدَأْ لَهُمْ مِن بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لِيَسْجُنَّهٗ حَتَّىٰ حِينٍ } فهذا دليل أيضاً على تفضيله السجن ، أي أنهم حتى بعد ما رأوا الآيات على أنها هي الكاذبة ، أرادوا إخفاء هذا الأمر بأن سجنوه U .

والدليل العاشر : قوله تعالى : { فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ أَرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ } أبي يوسف U أن يخرج من السجن حتى يُذهَبَ عنه تلك المقالة الشائنة التي نسبوها إليه ؛ { فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ أَرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسَأَلَهُ مَا بَالَ الْإِنْسَانِ النَّتِيُّ قَطَعَنَ آيَاتِي إِنَّ رَبِّي يَكِيدُهَا عَلِيمٌ } قال ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ النَّحْنُ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاودْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ } ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب وأن الله لا يهدي كيد الخائنين } .

هذه أدلة كثيرة تدل على براءة نبي الله يوسف U حتى عن مجرد الهم بالسوء ؛ ويكفي قول الحق تبارك وتعالى كما ذكرنا : { قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي

لَمُتْنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ { يكفي هذا دليلاً على براءته عليه الصلاة والسلام .

مكر النساء وكيدهن :

ثم قال الله تبارك وتعالى : { وَأَسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ } يعني من الخلف { وَالْفَيَا سَيِّدَهَا } وجدا زوجها { لَدَا الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } لما رأت زوجها عند الباب ، قلبت الحقائق فانقلب الظالم مظلوماً ، والحق باطلاً ، والباطل حقاً ، وانقلبت هي إلى امرأة ودیعة عفيفة مظلومة ، وادعت على يوسف U أنه الظالم المعتدي { قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا } وهكذا يكون المحرم والظالم والمعتدي ، ينسب إلى أهل البراءة ما ليس فيهم ، ولذلك عندما سئل النبي e في حديث الغيبة: أرايت إن كان في أخي ما أقول ؟ قال e : (إن كان فيه ما تقول فقد اغتبتة ، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته) ^(١) . هذا هو البهتان أن تلصق بالإنسان البريء ما ليس فيه ، وهذا أعظم من أن تتكلم على الناس بما هو فيهم ، ولكن من يلصق بالناس التهم التي ليست فيهم والعياذ بالله U ؛ فهذا من أعظم الذنوب عند الله تبارك وتعالى .

{ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } عند ذلك ما كان من يوسف U إلا أن تكلم { قَالَ هِيَ رَوَدَّتْنِي عَنْ نَفْسِي } دافع

(١) رواه مسلم (٢٥٨٩) .

عن نفسه ، ويجب على الإنسان عندما يتهم بالباطل أن يدافع عن نفسه فقال :
 { هِيَ زَوَّجْتَنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا } قال المفسرون : الشاهد
 طفل صغير في المهد ، ابن خالتها كان موجوداً في القصر ، قال عليه الصلاة
 والسلام : (تكلم في المهد أربعة ؛ ابن ماشطة بنت فرعون ، وشاهد يوسف ،
 وصاحب جريج ، وعيسى بن مريم U) ^(١) هؤلاء تكلموا في المهد ؛ فماذا قال
 هذا الشاهد ؟.

{ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ } أي من
 الأمام { فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَذِبِينَ } وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ { أي من
 الخلف { فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ } دليل غاية في الوضوح والبيان والحجة
 والبرهان { فَلَمَّا رَأَى قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَذِبِكُنَّ } لما رأى
 القميص مشقوقاً من الخلف، دلالة على هروب يوسف U ، وعلى أنها كانت
 تصر على فعل الذنب ، والعياذ بالله U { قَالَ إِنَّهُ مِن كَذِبِكُنَّ إِنَّ كَذِبَكُنَّ
 عَظِيمٌ } .

ماذا فعل زوجها العزيز؟! اكتفى بهذا الكلام!! { يَوْسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا }
 أكتف هذا الكلام ولا تتكلم ، وأنت يا زليخا { وَأَسْتَغْفِرِي لِدُنْيَاكَ } أي اطلبي
 المغفرة من زوجك ، { إِنَّكَ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ } يعني والعياذ بالله U
 قبول للفحشاء، وهكذا المترفون المنغمسون في الفسق والفجور، الذين لا يأبهون

(١) رواه أحمد (٣٢ / ٥) رقم (٢٨٢٢) ، والحاكم (٤٩٦ / ٢) ، وأورده الطبري في تفسيره (١٠٦ / ١٣) .

بحرمة، ولا يأهون بعب والعياذ بالله U ، فكل شيء عندهم سواء والعياذ بالله U ، وقد ورد في الحديث عن النبي e : (لا يدخل الجنة ديوث) وبَيَّن e أن : (الديوث الذي يقر الخبث في أهله) يرضى بالخبث، فإذا عرف أن زوجته أو ابنته خرجت ورتعت في الحرام، وجدته لا يحرك ذلك فيه ساكناً والعياذ بالله تبارك وتعالى من ذلك.

ثم قال U : { وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ }^١ انتشر الكلام في المدينة — في مصر — انتشر القول بين عليّة القوم عندهم ؛ امرأة العزيز أكبر وزير ، تراود فتاها ؛ عبدها وغلّامها الكنعاني { إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ }^٢ فَمَا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ { لما سمعت بانتشار هذا الكلام أعدت مكيدةً أخرى ؛ أرسلت إليهن ، وكنّ أربعين امرأة ، { وَأَعَدَّتْ لهنَّ مَثَكًا } يجلسن عليه ، { وَكَانَتْ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سَيِّئًا } وقدمت لهن فواكه تحتاج إلى تقطيع بالسكين وقالت ليوسف U — وهو لا زال باقياً في بيتها ، ولا زال تحت سلطتها وأمرها — فقالت { أَخْرِجْ عَلَيْنَ فَمَا رَأَيْنَهُ أَكْبَرَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ } أي : لما رأينه أعظمناه وأجللناه وهبناه وما ظنن أن يكون مثل هذا في بني آدم ، وبهرهن حسنه حتى اشتغلن عن أنفسهن ، وجعلن يجزرن في أيديهن بتلك السكاكين ولا يشعرون بالجراح { وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ } قال النبي e في حديث الإسراء والمعراج لما مر بيوسف U في السماء الثالثة قال e : (فإذا هو قد أعطي شطر الحسن)^(١) يعني نصفه ، قال مجاهد عن

(١) رواه مسلم (١ / ١٤٥ ، ١٤٧) كتاب الإيمان .

رببعة: قَسَمَ الحُسْنُ نصفين ، فأعطي يوسف وأُمُّهُ سارة نصف الحسن ، والنصف الآخر بين سائر الخلق ^(١).

{ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿١٠١﴾ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ } رفعت الحجاب ، ورُفِعَ الحياءُ ، وذهب الخجل ، وإذا بها تتبجح أمام صديقاتها الفاسدات مثلها ، وإذا بها تتبجح بالفحشاء والمنكر والعياذ بالله U ، كما يفعل المجاهر الذي ستره الله ثم إذا أصبح فضح نفسه !! ففي الصحيحين عن أبي هريرة t قال : سمعت رسول الله e يقول : (كل أمتي مُعَانِي إِلَّا المجاهرين ، وإن من المجاهرة أن يعمل الرجل بالليل عملاً ، ثم يُصبح وقد ستره الله ، فيقول : يا فلان ، عملت البارحة كذا وكذا ، وقد بات يستره ربه ، فيُصبح يكشف ستر الله عنه) ^(٢).

فإذا بها تقول : { فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَوَدُّهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا ءَامُرُهُ لَيَكُونَنَّ مِنَ الصَّغِيرِينَ } غاية في التبجح ، وغاية في ذهاب الحياء والعياذ بالله U ، ولما رأى يوسف U نظرات أولئك النسوة ؛ نظرات الفسق والفجور { قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ } أصبح جميع النسوة والعياذ بالله U ينظرن إليه نظرة الريبة ، ونظرة الفحش والفسق والفجور ، فالتجأ إلى ربه U ، ومن التجأ إلى الله نجا ، ومن اعتصم بحبله فاز ، ومن اعتمد عليه نصره الله تبارك وتعالى .

(١) < تفسير الطبري > (١٣ / ١٣٦ ، ١٣٧) ، و < تفسير ابن كثير > (٤ / ١٨٣٩) .

(٢) رواه البخاري (٦٠٦٩) ، ومسلم (٢٩٩٠) .

ومن الفوائد التي نأخذها من هذه الآيات : أن تساهل الزوج في الغيرة على زوجته قد يُجرّأها على الخيانة والفجور . فعندما اكتفى العزيز بقوله لزوجته { وَأَسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ ... } ولم يزد في تأنيبها على ذلك !! جرّأها ذلك إلى أن تبوح للنسوة بعشقها الفاضح ليوسف e ، وتصميمها على الخيانة والفجور حتى أنها لتقول : { وَلَئِنْ لَّمْ يَفْعَلْ مَا ءَامُرُهُ لَيَكُونَنَّ مِنَ الصَّغِيرِينَ } .

وهنا قصة واقعية يجدر بنا أن نذكرها ؛ حدثت في بلاد الشام ، وهي أن شاباً قد أعطاه الله U الجمال ، وأعطاه الدين والخوف من الله U ، جاءته امرأة في يومٍ من الأيام ، وقالت له : نريد منك مساعدة ، تحمل معنا شيئاً ؛ فحمل معها ذلك الشيء ، ولما دخل إلى بيتها أغلقت الباب ، وقالت له : ما دعوناك لتحمل هذا الشيء ، وإنما دعوناك — والعياذ بالله — للفسق والفجور ؛ للفاحشة . فأخذ يفكر ويفكر ، فهداه الله تبارك وتعالى ، فقال لها : أمهليني حتى أقضي حاجتي ، فدخل إلى الحمام ليقضي حاجته ، وإذا به يأخذ من الأوساخ التي في ذلك المكان ، ويلطخ بها جسده ، ثم يخرج عليها فما أن رآته في تلك الصورة ، إلا فتحت له الباب وطرده من بيتها ، فخرج واغتسل ، فلما اغتسل انبعث من جسده رائحة المسك ، وأصبحت تلك الرائحة تخرج من جسده إلى أن لقي الله تبارك وتعالى ، من غير عطر ولا تعطر ، إكراماً من الله تبارك وتعالى لمن حمى نفسه من الوقوع في هذا الذنب العظيم ، وسُمّيت هذه الأسرة بأسرة المسكي ، وسمي المكان الذي عاش فيه بحي المسكي ، وهو موجود في بلاد الشام إلى يومنا هذا .

{ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ } المؤمن الشاب إذا خاف على نفسه بعد أن صلى الله تعالى وأدى الواجبات، وترك المحرمات ، وخشي الوقوع في هذه المصائب ؛ يلجأ إلى الله ؛ ولا ملجأ من الله إلا إليه .

وكذلك فإن المؤمن العاقل الفطن يرفض اللذة العاجلة التي يعقبها ندم دائم ، وعارٌ ونازٌ ؛ بل يقدم المنية على الدنية ؛ فهذا هو يوسف U يختار السجن على الوقوع في الفاحشة .

{ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ } فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُمْ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ثُمَّ بَدَأْ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لِيَسْجُتُنَّهُمْ فَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّ السَّنَةَ

الناس تتكلم في هذا الأمر ، وأن الأمر قد انتشر بين الناس ، قالت لزوجها : لا مفر من أن تخرج هذا الرجل إلى الناس ، وتفضحه أمام الناس ، وتسجنه حتى يعرف الناس براءتي . مكر وخبتٌ ودهاء ؛ كل أعمالها مكرٌ من أولها إلى آخرها والعياذ بالله U ، فإذا بالعزيز يستجيب لها كما يستجيب الزوج الذي ليس لديه عقل ولا رشد عندما توجهه زوجته إلى طريق الفساد ، أو إلى طريق تضييع الأموال ، أو إلى طريق لا ينفع وإنما يضر ، فيستجيب لها ويصبح هذا الزوج مربوطاً بجبل بيد زوجته ، تسوقه حيث شاءت ، وإلى أي مكان أرادت ؛ حتى ولو كان ضاراً به وبأولاده ، وبنفسه وزوجته ، والعياذ بالله U .

قال سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما : فأمر به عزيز مصر فحُمِلَ على حمارٍ وضُرِبَ بالطبل ونودي عليه في الأسواق : إن يوسف العبراني أراد سيده بسوء ، فجزأؤه أن يُسَجَن . وأدخل عند ذلك السجن { ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِن بَعْدِ مَا رَأَوُا آيَاتٍ لِّيُصْغِتَهُ } حتى حين . قيل سبع سنوات وقيل أقل وقيل أكثر .

يوسف e في محنة السجن :

بعدما قرر العزيز وزوجته إدخال يوسف U إلى السجن ، بدأت المرحلة الرابعة من الابتلاء الذي نزل وأصاب نبي الله يوسف U ، فبعد حقد إخوته وحسدهم ، وبعد الإلقاء في الجُبِّ ، وبعد الرِقِّ في بيت العزيز ، وبعد الإغراء بالشهوات ، وبعد الإتهام في الفاحشة ، بعد كل هذه الابتلاءات يأتي البلاء بالسجن . هذه مجموعة من الابتلاءات يتلى بها نبي الله يوسف e ، وهكذا غيره من أنبياء الله يتلون بصنوف البلايا ، فيضربون أروع الأمثلة في الصبر والرضا ، وبيان حقارة الدنيا وهوانها .

وَأُدْخِلَ يوسف في السجن ، ومكث فيه سبع سنين كما ذكر ذلك المفسرون ، امتحاناً عظيماً ، وابتلاءً كبيراً من الله ، وما أشد الابتلاء والامتحان عندما يكون على البراءة ، وعلى الصفاء ، فجزاء صبره ، وعدم وقوعه في الحرام ، وطهارته ، ونقاوة سريرته ، أن يُعَامَلَ بأن يُسَجَن ، فلذلك يكون الألم أشد لأنه بريء ، ومع ذلك دخل السجن .

{ وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانٍ } تمضي الآيات المباركات تنير لنا طريقنا ،
وتشرح لنا تلك القصة المنيرة التي يهتدي بها كل مسلم ومؤمن { قَالَ أَحَدُهُمَا
إِنِّي أَرْنِي أَحْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرْنِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ
نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ } رأوه متجهاً إلى طاعة الله، صابراً ذاكراً
لله U، يتعامل معهم بكل لطف وبكل سماحة ، فارتاحت له أنفسهما ، وقصصاً
عليه رؤياهما ، وذكر المفسرون أن هذين الفتيتين هما : الساقى ، وهو ساقى الملك
— ملك مصر — والآخر : هو الخباز ، خباز ملك مصر ، وذكروا أنهما اتفقا على
قتل ملك مصر بأن يضعوا السم في طعامه وشرابه ، ولكن الساقى تراجع بعد
ذلك ، فلما قدم الخباز الطعام إلى الملك ، قال الساقى للملك : احذر فإن فيه
السم ؛ فقال الخباز للملك : وإن في شرابه السم ، فأمر الملك الساقى أن يشرب
الشراب فشربه فلم يحدث له شيء ، وأمر الخباز أن يأكل الطعام فنكل ، ولم
يأكل فعند ذلك أعطاه للبهائم فهلكت البهائم ، فعرف أن هذا الخباز هو السبب ،
ولكنه أدخلهما السجن مع بعضهما البعض ، وكانت هذه القصة سبباً في
دخولهما ، وإذا بسيدنا يوسف U لا يبادرهما بالإجابة، ولكنه يبادرهما
فيرفهما برسالته ودعوته، ومعجزة الله له ؛ لأنه ما من نبي يجيء إلا ومعه معجزة
بينة ، فإذا به يقول لهما : { لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَأَكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ
يَأْتِيَكُمَا } قبل أن يأتي الطعام أقول لكما سيأتيكما اليوم كذا وكذا وكذا وهذه
من علوم الغيب ، وهي من معجزات الله لأنبيائه ورسله، وهذا فيه تثبيت حتى
يدعوهما إلى الله ، ليست للدعاية ، وليست للرياء والسمعة ، وإنما يريد أن

يدعوهما إلى الإسلام ، فقبل أن يدعوهما إلى الإسلام إذا به يعرفهما بمعجزته ، وببينته وبرهانه الذي جاء به من عند الله { قَالَ لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِيهِ إِلَّا نَبَأَكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا } ثم لا تظنوا أي كاهن و ساحر ، أدعي علم الغيب وأتعامل مع الشياطين ؛ لا ، قال : { ذَلِكَ مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي } هذه هي النبوة والرسالة ، وهي من عند ربي جل وعلا ؛ نسب العلم إلى الله تعالى .

دعوة يوسف ﷺ إلى الله في السجن :

{ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ } يقصد عزيز مصر الذي كان معه ، وقوم فرعون الذين عاش معهم ، فقد ترك شركهم وكفرهم واتبع دين الله تبارك وتعالى { وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَتْ لَنَا أَنْ تُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا } إنه يفتخر بفضل الله تعالى عليه ، ليس بالمال ، ولا بالجاه ، ولا بالمنصب ، ولا بالوجاهة ، ولا بالجمال ، وإنما فضل الله عليه أنه نجاه من الشرك ، وأنه أكرمه بالإسلام ، وأكرمه بالإيمان ، ذلك من فضل الله علينا ؛ وهكذا المؤمن ، يفرح بالإسلام ، يفرح بالصلاة والطاعة ، ويفرح بعبادة الله U ، قال تعالى { قُلْ يُفَضِّلُ اللَّهُ وَرَحْمَتَهُ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ } (١) .

(١) يونس : ٥٨ .

قال : { ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ } ولكن أكثر الناس لا يعرفون نعمة الدين ، ولا نعمة الإيمان ، ولا نعمة التوحيد ، ويقدرّون نعم الدنيا وملذاتها وشهواتها الفانية ، وينسون أن هناك عند الله U أجراً مُدَّخراً ، ثم أخذ يدعوهم إلى الله ، وهكذا الداعية ينبغي عليه أن يدعو إلى الله تبارك وتعالى ، وينتهاز الفرص المناسبة ، ليست الدعوة كلما سنع له وقت تكلم ودعا الناس إلى الله ، سواءً كانوا في راحة أو في مشقة ؛ في رضا أو في سخط ؛ لا ، ليست هذه دعوة ، وإنما الدعوة أن ينتقي الوقت المناسب ، الذي ينفع فيه الكلام ويؤثر .

لقد جاء إليه هذان الفتيان الراغبان يريدان معرفة جواب معين ، وإذا به يستغل هذه الفرصة لِيُحِبِّبَ لهما الدين ، ويعرفهما على الله تعالى ، وانظر إلى هذا الأسلوب النبوي الكريم { يَصْنَعِي السِّجْنِ } كلمة تُلطف وتودد ، مع أنهما كافران ، لم يكونا مسلمين ، ومع ذلك تُلطفَ معهما في دعوتهما ، فكيف بمن تدعوه إذا كان مسلماً تاركاً للصلاة ، وتاركاً للعبادة ، أو مرتكباً للمحرمات ، لاشك أنك تحتاج إلى هذا الأسلوب الحكيم ، قال : { يَصْنَعِي السِّجْنِ أَزْيَابٌ مُتَفَرِّقُونَ حَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ } .

يتحدث معهما بالعقل والمنطق : آلهة متعددة أم إله واحد { مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ } .

يوسف e وتعبير الرؤيا :

{ يَصْنَعِي السِّجْنِ } الآن بدأ الإجابة على سؤالهما ، بعد أن دعاهما إلى الله ، ونصحهما بالكلمة الطيبة ، وبالأسلوب النبوي الحكيم ، قال : { يَصْنَعِي السِّجْنِ } أَمَا أَحَدُكُمَا فَيَسْقَى رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَا الْآخَرُ فَيُصَلِّبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ { فقليل إنهما قالاه : ما رأينا رؤيا ، ولا شاهدنا في منامنا شيئاً !! . فقال لهما : { قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ } ^(١) انتهت المسألة ، ليس فيها لعبٌ ، ليس فيها عبث ، ليس فيها إلا الحق الذي أمر الله به تبارك وتعالى ، فأفتى بتفسير رؤياهما : أن من رأى أنه يعصر خمراً ، والخمر لا يُعصر وإنما يعصر العنب الذي يصير خمراً ، أنه سيعود إلى ربه — أي الملك — ويسقيه مرةً أخرى ، وأن الآخر سيُصلبُ وتأكل الطير من رأسه ، فقال عند ذلك { قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ } جواب مختصر ولكنه علم من علم الله تبارك وتعالى .

وقد ورد في الحديث أن النبي e قال : (الرؤيا مُعَلَّقةٌ بِرِجْلِ طَائِرٍ مَا لَمْ يَحْدَثْ بِهَا صَاحِبُهَا ، فَإِذَا حَدَّثَ بِهَا وَقَعَتْ ، وَلَا تَحْدُثُوا بِهَا إِلَّا عَالِمًا أَوْ نَاصِحًا أَوْ لَبِيئًا ، وَالرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ جُزْءٌ مِنْ أَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ النَّبُوَّةِ) ^(٢) .

(١) < تفسير ابن كثير > (٤ / ١٨٤٣) .

(٢) رواه أحمد في < المسند > (١٦١٨٣) وقال محققو المسند : حديث حسن لغيره .

{ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنَسَنَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ } قال للذي سينجو منهما وهو الساقى: { اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ } يعني: اذكرني عند الملك، وأني مظلوم، ودخلت السجن ظلماً وعدواناً، وأني بهذه الصفة التي رأيتني بها، { فَأَنَسَنَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ } نسي أن يذكر يوسف عند الملك، ويخبره بخبره، وهذا بأمر الله، وذكر بعض المفسرين: أن الله تبارك وتعالى عتب عليه لما اشتكى وطلب المعونة من هذا الملك، وأوصى هذا الساقى أن يتوسط له لدى الملك، عند ذلك جاءه جبريل **U** وقال له: يا يوسف! مَنْ خَلَّصَكَ مِنَ الْقَتْلِ مَنْ أَيْدِي إِخْوَتِكَ؟! قال: الله تعالى. قال: فمن أخرجك من الحب؟ قال: الله تعالى. قال: فمن عصمك من الفاحشة؟ قال: الله تعالى. قال: فمن صرف عنك كيد النساء؟ قال: الله تعالى. قال: فكيف وثقت بمخلوق وتركت ربك فلم تسأله؟! قال: يارب كلمة زلّت مني! أسألك يا إله إبراهيم وإسحاق والشيخ يعقوب عليهم السلام أن ترحمني؛ فقال له جبريل: فإن عقوبتك أن تلبث في السجن بضع سنين^(١).

وليس معنى هذا أن الإنسان لا يستعين بالناس، المسلم يستعين بأخيه المسلم، وهو يعلم في قرارة نفسه أن الله هو النافع الضار، أن الله هو الذي يجعل الأمور تصير إلى الخير، أو تصير إلى الشر، وأن هذا العبد الذي تذهب وتشتكي إليه،

(١) < تفسير الطبري > (٩/ ١٢٩).

أو تطلب منه أمراً من أمور الدنيا ، ما هو إلا سبب ؛ تأخذ بالسبب ، وقلبك معلق بالله تعالى ، أما إذا أخذت بالسبب ، وقلبك ليس معلقاً بالله ، وإنما معلقٌ بذلك السبب ، تذهب إلى الإنسان : يا فلان أخرجني من الأزمة ، وكله ظن أن هذا الإنسان يستطيع أن يخرجك من هذا الهم ، ومن هذا الكرب ، فهذا لا شك أنه من الأمور التي تؤثر في إيمان المسلم ، فتؤثر في يقين المسلم ، وفي توحيده لله سبحانه وتعالى ، فلا ينبغي للمسلم إلا أن يكون خاضعاً لله U ، وموقناً بما عند الله U ، من الخير والشر ، فيسأله تبارك وتعالى من خيره ، ويستعيد به U من الشر كله عاجله وآجله ، إذاً المسلم يطلب العون والمساعدة من الآخرين ، من باب الأخذ بالأسباب ؛ كما قال سبحانه وتعالى : { وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ } (١).

وأما بالنسبة ليوسف U فهو نبي كريم ، ومكانة يوسف كني تجعل استعانته بأحد من البشر من باب الأخذ بالأسباب فقط ، وإلا فالقلب معلق بالله U بلا شك ولا ريب .

{ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنَسَنَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ } سبع سنوات كاملة ، وبعدها رأى الملك رؤيا ، وكانت هذه الرؤيا فرجاً من الله لسيدنا يوسف U .

(١) المائدة : ٢ .

رؤيا الملك وتعبيرها :

{ وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعٌ سُتُوبَاتٍ خُضِرَ وَأُخَرَ يَابَسَتْ يَتَأْتِيهَا أَمْلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ } رأى أن بقرات يخرجن من النهر سمينات ، ثم تتبعهن بقرات عجاف ضعيفات ، وإذا بالبقرات الضعيفات يأكلن السمينات ، ورأى كأن سنابل القمح الخضراء اليانعة ، كأنها تلتف عليها شجرات يابسات فتأكلها وتلتهمها ، فقام من نومه فزعاً مدعوراً ، وطلب تعبیر رؤياه ، فقال : { يَتَأْتِيهَا أَمْلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ } جمع الكهنة والرهبان ، وكل من كان عنده علم ، وسألهم عن تلك الرؤيا ، { قَالُوا أَضْغَتْ أَحْلَمَ } لم يعلمهم الله سبحانه وتعالى ، لأنه ادّخر ذلك للأنبياء والصالحين أمثال يوسف { قَالُوا أَضْغَتْ أَحْلَمَ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَمِ بِعِلْمٍ } وقال الذي نجا منهما وادّكر بعد أمته { يعني بعد سنين طويلة ، تذكر الساقى } أَنَا أَنْبِئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ { فأرسلوه إلى يوسف ، فقال له : { يَوْسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُتُوبَاتٍ خُضِرَ وَأُخَرَ يَابَسَتْ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ } هذا الساقى يقول: أفтни في هذه الرؤيا لعلى أرجع إلى الناس وأخبرهم بمكانتك وبفضلك ، وبأنك مظلوم ، لعلهم يعلمون فضلك ، فيعيدونك إلى وضعك ومكانك ، فما كان من يوسف { ، إلا أن أجاب الجواب ، ولم يشترط شيئاً ، لم يقل لهم : لن أعطيكم تفسير الرؤيا إلا إذا أخرجتموني من السجن ، ولم يعاتب هذا الرجل ، كيف ينسأه وقتاً طويلاً ، وهذا يدل على شهامته ونزاهته ، وبُعدّه عن المزايدات

صلوات ربي وتسليماته عليه { قَالَ تَزَرَّعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأْبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُّوهُ فِي سُبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا نَأْكُلُونَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَحْصِنُونَ ﴿١٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعَصِرُونَ } .

ففسّر البقرات السمينات بالسبع السنوات المباركات ، والبقرات العجاف بالسنين العجاف الجافة ، ونصحهم أن يقتصدوا في صرف الطعام في السبع سنوات الأولى ، وأن يُحَصِّنُوا الزرع { فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُّوهُ فِي سُبُلِهِ } أي : اتركوه في سبله حتى لا يفسد وحتى لا يصل إليه السوس ، ويبقى للسنوات السبع العجاف التي تأتي بعد ذلك { ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ } وهذه لم تكن في الرؤيا ، وإنما كانت من وحي الله لسيدنا يوسف U ؛ يغاثون بالاطر ، ويعصرون من كثرة الفواكه والثمار ، يعصرون الزيت ، ويعصرون العنب والقصب والزيتون والسمسم وغيرها .

{ وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْتِيَنِي بِهِ؟ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ أَرْجِعْ إِلَى رَبِّكَ { لم يشأ أن يخرج لما جاءه مندوب الملك يطلب منه أن يخرج من السجن ، لما جاءه الرسول لم يخرج U ، بل { قَالَ أَرْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَسَأَلَهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ الَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ } قال e : يمدح نبي الله يوسف U في ذلك الموطن : (... ولو لبثت في السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعي)^(١) وهذا تواضع من النبي المصطفى e ، وإلا فهو أعلى مقاماً من سيدنا يوسف U ، ولكن تأدباً ، وحتى يُعرِّفنا على مقام سيدنا يوسف U ، ويرفع من شأنه ، وفي رواية أخرى : (لو كنت أنا

(١) رواه البخاري (٣٣٧٢) ، ومسلم (١٥١) .

لبادرهم الباب) يعني لو انتظرت سبع سنين في سِجني ويأتيني الفرج ، لأسرعتُ في الخروج ؛ ولكن يوسف U لم يشأ أن يخرج إلا بصفحةٍ بيضاء ؛ لا يتكلم فيه أحد .

{ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسَأَلَهُ مَا بَأَلُ الْيَسْوَ } ، ولم يقل امرأة العزيز ، ما أراد أن يفضحها ، ولا أراد أن يفضح النساء ، نتعلم الأدب في قصص الأنبياء ، أدب اللفظ ، أدب الحديث .

الإعلان ببراءة يوسف e وخروجه من السجن :

{ قَالَ مَا خَطْبُكَ } الملك جمع النسوة ، وقال : { مَا خَطْبُكَ إِذْ رَوَدَّتْ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْتُ حَسَّ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ } هذه أول شهادة من النسوة ، ما علموا عليه من سوء ، { قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْكَنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ } ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخْنُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِبِينَ ﴿٥١﴾ وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ } وقال بعض المفسرين أن هذا الكلام الأخير جاء على لسان يوسف U ، وليس على لسان امرأة العزيز ، أي أنه قال : { ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخْنُ بِالْغَيْبِ } أي ليعلم العزيز أني لم أخنه في زوجته بالغيب { وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِبِينَ } والله أعلم .

{ وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْتِيَنِي بِهِ أَسْتَخْلِصُهُ لِنَفْسِي } وجاء الفرج بعد تلك السنين ،
وبعد تلك المشقة ، جاء الفرج من الله سبحانه وتعالى ، { أَتُؤْتِيَنِي بِهِ أَسْتَخْلِصُهُ
لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ } .

العز والتمكين بعد المحنة والابتلاء :

{ قَالَ أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْهَا } أي : مسؤول المالية
والاقتصاد الوطني ، وهنا يوسف U ذكر ما عنده من الخبرة والعلم ، وفي هذا
من الفوائد أنه لا بأس للإنسان أن يذكر ما لديه من الخبرات والميزات والخصائص
والصفات الحميدة كالصدق والأمانة وغيرها .

وأخيراً يختم الله تبارك وتعالى هذه الآيات بقوله سبحانه : { وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا
يُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ
الْمُحْسِنِينَ } بعد تلك الحن كلها يخرج يوسف e من السجن عزيزاً مُمَكَّنًا له
في الأرض ، غنياً قوياً ، وتلك سنة الله لمن اتقى وصبر ، فإن الله U لا يضيع
أجر المحسنين .

والحسن الذي أعطى لوجه الله تبارك وتعالى ، من علمه ، وماله ، وفضله ،
وجاهه ، لا يضيع عند الله تبارك وتعالى ، لو ضاع عند الناس فإنه عند الله U
لن يضيع { وَلَا جَزَاءُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَنْقُوتُونَ } ليس في الدنيا فقط لا
يضيع ، بل لا يضيع الله أجرهم حتى في الآخرة ، لهم عند الله U الأجر الأوفى في
دنياههم وأخرَاهم .

ومضت السنوات السبع التي فيها الخيرات والأرزاق ، وكان نبي الله يوسف U يجمع فيها الطعام ويخزنه في المخازن ، تَحَسُّباً للسنوات السبع العجاف التي جاءت كما رأى ملك مصر في تلك الرؤيا ، وفسرها نبي الله بوحى من الله U ، فجاءت السبع سنوات العجاف بعد السبع سنوات الخيرة المباركة ، والتي أعد لها نبي الله يوسف العدة كلها ، فلما جاءت السنون العجاف بدأ الناس يتوافدون من كل حذب وصوب يقصدون يوسف U ، الذي تناقل الناس عدله وكرمه ، وعطاءه وإحسانه للناس ، ومن ضمن من وصلهم الخبر أبوه يعقوب وأولاده ، فلما عضَّهم الجوع بنابه تحركت قافلته إلى أرض مصر ، يقصدون نبي الله يوسف العزيز ، ليعطيهم مما أعطاه الله تبارك وتعالى من الخيرات والبركات .

لقاء يوسف بإخوته بعد طول فراق :

ويصف لنا القرآن العظيم هذا اللقاء الأول بعد طول فرقة بين تلك الأسرة ، قال عز من قائل سبحانه : { وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ } عرفهم لأنهم لم يتغيروا في أشكالهم وصورهم عما كانوا عليه ؛ لأنهم كانوا كباراً { وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ } لأنه كان صغيراً وكبير ، فتغيرت ملامحه ، وتغير لبسه وهيئته ، فما كان يخطر على بالهم أن يكون هذا هو يوسف الذي ألقوه في الحب قبل سنين وسنين { وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ أَتُنُونِي بِأَنْ أُنْجِيَكُمْ مِنْ أَيْدِي آلِ تَارُوتَ أَيْ أَوْفِي أَلْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ } لما جاءوا إليه قال لهم : لماذا جئتم إلى هذه البلاد ؟ قالوا : جئنا لنمير أهلنا وقبيلتنا. قال : بل جئتم جواسيس

علينا . قالوا : لا ، فنحن أبناء يعقوب . قال : هل لكم من إخوة ؟ قالوا : كان لنا أخ ، ولكنه هلك ومات في الصحراء ، وهناك آخر لا زال عند أبي . فقال لهم : إن كنتم صادقين ففي المرة القادمة لن أعطيكم الطعام حتى تأتوني بهذا الأخ الذي من أبيكم ، تؤتوني به فإن كنتم صادقين زودتكم ، وإن كنتم كاذبين فلا تقربوا أرضي ، ولا تقربوا هذا المكان بعد ذلك ، وكانت هذه حيلة ألهمه الله تبارك وتعالى إياها .

وهنا قد يسأل سائل : لماذا لما رأى يوسف إخوانه ، لم يبادر إلى أبيه ، ويسأل عن مكانه فهي فرصة بعد سنين طويلة من الفارقة ؟ .

فالجواب : أن ذلك كان بأمر من الله تبارك وتعالى ، لحكمة يريد بها الله U ، ليزيد من الابتلاء على يعقوب ، وليزيد من إظهار العبرة والعظة في هذه القصة العظيمة .

وبعدما جهّزهم ، وحمل لكل فرد حملٍ بغيرٍ كامل ، طلب منهم أن يحضروا أخاهم من أبيهم معهم في المرة القادمة ، وقال : { فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ } لأنكم كاذبون فيما ادعيتموه { قَالُوا سَرَوْهُ عَنْهُ آبَاءُ } سنبدل المستحيل في إقناع أبيه ، وإنا لفاعلون { وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ } اجعلوا بضاعتهم : المال الذي أحضروه ليستبدلوا به الطعام ؛ فجاءوا بملايس وأقمشة وغير ذلك ، لأن العادة عندهم أن المبادلة لا تكون بمال ، وإنما ببضاعة ببضاعة ، فجاءوا ببضاعة ، فأمر يوسف U أن ترد عليهم تلك البضاعة ، حتى يعودوا مرةً أخرى ،

ويظنوا أنهم قد نسوا ذلك المال ؛ تشجيعاً منه وترغيباً لعودتهم مرة أخرى { فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَيْهَمَ } إلى يعقوب U { قَالُوا يَا أَبَانَا مَنَعَ مِنَّا الْكِيلُ } يعني في السنة القادمة لن نتمكن من أن نأتي بكيل مرة أخرى { فَأَرْسِلْ مَعَنَا آخَانَا } حتى يُصَدِّقَنَا العزيز { نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ } أكدوا في هذه المرة الحفظ ، لأنهم عرفوا أنه لن يقبل { قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا ءَامَنُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ قَالَ اللَّهُ خَيْرَ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ } ولأجل هذه الكلمة العظيمة حفظ الله أولاده ، وردهم إليه سالمين ، فهذه كلمة عظيمة ، إذا أراد المسلم أن يستحفظ شيئاً من نفسه أو ماله أو ولده ؛ فليقل بمثل دعاء يعقوب U { قَالَ اللَّهُ خَيْرَ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ } فإنه بإذن الله U لن يضيع له شيء .

{ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزِدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ } تشجعوا أكثر للذهاب مرة أخرى إلى يوسف U ، لما رأوا أن بضاعتهم رُدَّتْ إليهم ، وهم بالتالي سيأخذون أضعافاً مضاعفة من الخيرات والبركات { قَالَ لَنُؤْتِيَنَّكَ مِائَةً مِّنَ الْمِائَةِ أَتَىٰ عَلَىٰ الْغَدِ بِكَ أَمْ تَأْتِيكَ فِي الْغَدِ } فأعطوه الموثق ، طلب منهم أن يقسموا بالله ، يعطوه العهد والميثاق ، أن لا يفرطوا في بنيامين أخي يوسف U الأصغر { لَسَأُتْنِي بِهِ إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ } إلا أن تهلكوا جميعاً { فَلَمَّا ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ } وقال يَسْبِقُ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ { خاف عليهم من العين ، فطلب منهم أن لا يدخلوا من باب واحد إلى مصر ، وإنما يدخلون من أبواب متفرقة ،

ولماذا لم يطلب منهم في المرة الأولى ذلك ؟ لأنهم في المرة الأولى كانوا غرباء ، قد يطردون وقد لا يأخذون شيئاً ، ولكنهم لما ذهبوا إلى مصر ، أكرمهم يوسف وأسكنهم ، وأحسن ضيافتهم ، فالتاس تنظر إليهم بعين الاهتمام ، هؤلاء تَمَيَّزُوا عن الناس بالإكرام ؟! فإذا عادوا وزاد معهم بنيامين ، يكونوا عرضةً للعين والحسد من الناس ، بسبب اهتمام يوسف بهم من بين بقية الناس .

أخذ الأسباب للوقاية من العين :

{ وَقَالَ يَبْنَى لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَأَدْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَلْحَكُمُ إِلَّا اللَّهُ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ }
والعين حق فالواجب على المسلم أن يُحصِّن نفسه بذكر الله تعالى ، وقد كان

النبي e يُحصِّن الحسن والحسين ؛ فعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله e كان يُعوذ الحسن والحسين ، ويقول : (إِنَّ أباكما كان يُعوذ بهما إسماعيل وإسحاق : أعوذ بكلمات الله التامة ، من كل شيطان وهامة ، ومن كل عين لامة) (١) .

{ وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةٌ فِي نَفْسٍ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ } ما كان يغني عنهم من الله من شيء ؛ أي : لا ينفعهم أن يدخلوا من تلك الأبواب إلا بأمر الله ، وقدرة الله ، وإلا بما علَّم الله U نبي الله يعقوب من هذا العلم .

(١) رواه البخاري (٣٣٧١) ، والترمذي (٢٠٦١) ، وأبو داود (٤٧٣٧) .

فالواجب على المسلم أن لا يظهر أمام الناس بمظاهر الافتخار ، ومظاهر القوة والعزة ، والسلطان والمال ، فإنه قد يكون سبباً للعين والحسد الذي يهلك ماله وولده ونفسه ، وهذا من خلق الإسلام ؛ أن يتواضع المسلم ، وأن يتأدب ، وأن يكتُم النعمة التي أكرمه الله بها تبارك وتعالى ، لا أن يتفاخر أمام الناس ، فإنه قد يُعرّض نفسه للعين التي حذرنا منها النبي ﷺ .

حيلة يوسف ﷺ لضم أخيه إليه :

{ وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَعَتْ إِلَيْهِ أَخَاهُ } قام يوسف ﷺ بإسكان كل أخوين من إخوته مع بعضهما في سكن واحد ؛ فبقي بنيامين ليس له أخ يسكن معه ، فقال : هذا يسكن معي ، فلما دخل معه { ءَاوَعَتْ إِلَيْهِ أَخَاهُ } ضمه وقبله ، والدموع تجري من عينيه { قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَهِشْ يَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ } وأخبره بخبره ، وقص له القصة ، ودبر بأمر الله تبارك وتعالى له تدبيراً حتى يبقى معه { فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ } وهي كيل الملك العزيز ، وهو من ذهب مُرَصَّع بالجواهر ، { فِي رَحْلِ أَخِيهِ } بنيامين وفي خاصة ملابسه { ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ } نادى منادٍ { أَتَتْهَا الْغَيْرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ } قَالُوا وَأَقْبِلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقَهُونَ } قَالُوا نَفَقْدُ صُورَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ } من جاء به من غير تفتيش ، وأقر بنفسه فله حمل بعير مجاناً هدية ، وأنا بذلك زعيم أي ضامن { قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ

فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَكِرِينَ } كيف تنسبون السرقة إلى أناس هم أبناء الأنبياء ،
وهم من الصالحين ؛ من شدة ثقتهم في أنفسهم . { قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ
كَذِبِينَ } قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وَجَدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ {
وهذه الحيلة من سيدنا يوسف **u** ، أنه أخذ بعقوبة السارق في دين يعقوب
u ، فعقوبة السارق في دين يعقوب أن يؤخذ عبداً لمدة عام ، وعقوبة السارق
في دين ملك مصر فرعون أن يُضْرَبَ وَيُؤْخَذَ مِنْهُ الضَّعِيفِينَ مِنْ قِيَمَةِ الشَّيْءِ الَّذِي
سَرَقَهُ ، فهو سألهم : كيف يكون جزاء السارق عندكم وفي دينكم ؟ فقالوا : هو
جزاؤه . يعني أن يكون عبداً سنةً كاملةً { قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وَجَدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ
جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ } فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ { وأخذ
يبحث فيها ، فلما وصل إلى وعاء أخيه ، قال : لا يمكن لهذا الصغير أن يسرق ،
قالوا : لا ، لابد أن تفتش أنت حتى هذا الصغير ، حتى هم شجعوه على ذلك
{ ثُمَّ اسْتَخْرِجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ { فَبُهِتُوا وَفَجَعُوا وَكَانَتْ صَاعِقَةً عَلَيْهِمْ
{ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ { لو أخذ بما عندهم
في دينهم { مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ
نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ { فوق كل عالم من هو أعلم منه ، إلى أن يصل
العلم إلى الله سبحانه وتعالى ، قال عبد الله بن عباس **t** : الله العليم ، وهو فوق
كل عالم .

{ قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ } تكلموا أمام يوسف
 U ، فقالوا : هذا الغلام ، أمه راحيل ، وأخوه الأول قد سرق ، وقد كان
 يُروى أن يوسف U سرق صنم جده أبي أمه فكسره ^(١) . فلعلهم كانوا
 يقصدون ذلك ، ولعلهم إنما أرادوا التهمك ليس إلا { قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ
 سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ } يعني : هذا بنيامين مثل أخيه الأول { فَاسْرَهَا يُوسُفُ
 فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ } وقال في نفسه { أَتُتَدَّ شُرٌّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا
 تَصِفُونَ } ثم بعد ذلك تذكروا قسمهم لأبيهم ؛ قالوا { يَتَأْتِيهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ
 أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ } بعد أن تناولوا
 تذكروا قسمهم بالله ، وكان فيهم بقية من دين ومن خوف من الله تبارك وتعالى
 { قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَّعَيْنًا عِنْدَهُ إِنَّا إِذَا ظَنَمْنَاهُ } كيف
 نأخذ غير الظالم ؛ نأخذ المخطئ ، أما غير المخطئ فلا نأخذه { فَلَمَّا اسْتَيْسَسُوا
 مِنْهُ حَكَايَاهُمْ يَحْيَى } لما استيسسوا من يوسف ومن إقناعه ، خلصوا أي : اجتمعوا
 وتشاوروا فيما بينهم وتناجوا : ما هو الحل في هذه المعضلة الكبرى ؟ قال
 كبيرهم روبيل وهو الذي كان أشار عليهم ألا يقتلوا يوسف وأن يلقيه في الحب
 { قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا
 فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِيَ أَبِي أَوْ يَخُذَكُمْ اللَّهُ إِلَيْهِ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ }
 لن أخرج من مصر ، حتى يأذن لي أبي بالخروج { أَرْجِعُوا إِلَى آبَائِكُمْ فَقُولُوا يَتَابَعْنَا

(١) < تفسير ابن كثير > (٤ / ١٨٥٢) .

{ إِنَّكَ أَنتَكَ سَرَقَ } هذا الذي شهدنا وهذا الذي رأيناه { إِنَّكَ أَنتَكَ سَرَقَ } وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴿١٠﴾ وَسَّالِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَدِيقُونَ } فقال لهم نبي الله يعقوب لما وصلوا إليه : { قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبِرْ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا } .

شدة البلاء يعقبه سرعة الفرج :

{ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبِرْ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا } لما ازدادت المحنة على سيدنا يعقوب U ، أدرك أن الفرج قد اقترب ، كما قال سبحانه : { فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿١﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٢﴾ } (١) فقد ولده يوسف ، فلما فقد الثاني عرف أن مع زيادة الكرب ، ومع زيادة البلاء ، قد اقترب الفرج { فَصَبِرْ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ } وهكذا يعرف الصالحون وعباد الله ممن علّمهم الله U أن بعد العسر يسراً وما ضاقت إلا فُرِجَت ، وما بعد الكرب إلا الفرج ، وما بعد الصبر إلا النصر بإذن الله تبارك وتعالى { وَقَوْلُنَّ عَنْهُمْ } أخذ جانباً عنهم { وَقَالَ يَتَأَسَّفُنِي عَلَى يَوْسُفَ وَابْتِصَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ } لما جاءت له المحنة الثانية تذكر يوسف ؛ ما تذكر بنيامين أولاً ؛ لأن بنيامين لم يُقتل ، وهو يعرف أنه موجود في مصر ، وأنه هناك حي يرزق ، وكذلك أخوه الكبير ، ولكن

يوسف لا يدري في أي مكان هو ؟ ولا فوق أي أرض ؟! ولا تحت أي سماء ؟
 فلذلك هيّجته هذه المحنة ، وذكرته المحنة التي قبلها { يَتَأَسَّفُ عَلَى يُوسُفَ وَأَيَّضَتْ
 عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ } أي : يا حزننا ، ويا جزعاً على يوسف ؛ قيل : إنه أصابه
 العمى ، أو ضعف البصر ، من شدة بكائه على يوسف U ؛ { فَهُوَ كَظِيمٌ }
 يعني : مكظوم ؛ أي مملوء من الحزن ، ممسك له لا يبينه ولا يبثّه ، ومنه كظم
 الغيظ وهو إخفاؤه ^(١).

{ قَالُوا تَأَلَّوْا تَقْتُلُوا تَذْكُرُ يُوْسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا } أي : مريضاً ،
 وقال مجاهد : الحرض : ما دون الموت . وقال قتادة : حتى تبلى أو تهرم ^(٢).
 { أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ } فأعرض عنهم وقال { إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِي وَحُرِّيَّ
 إِلَى اللَّهِ } ما اشتكيت إليكم البث : وهو ما يخرج الشخص إلى الناس ، والحزن :
 وهو ما يكظمه الإنسان في قلبه من الهم والغم . إذا كظمت الهم والغم في قلبك
 فهو حزن ، وإذا أخرجته للناس فهو بث { قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِي وَحُرِّيَّ إِلَى اللَّهِ
 وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ } .

ثم بعد ذلك : ما كان من يعقوب U ، والإيمان يملأ قلبه ، والثقة بالله ،
 واليقين في ما عند الله ، إلا أن قال لأبنائه { يَبْنِيْ أَدْهَبُوا فَتَحَسُّوْا مِنْ يُوسُفَ }
 بعد كل هذا البلاء والتعب والمرض ، لم يئس من رحمة الله ، وهكذا المؤمن دائماً
 يستروح بذكر الله تبارك وتعالى ، ووعدده وفضله { يَبْنِيْ أَدْهَبُوا فَتَحَسُّوْا مِنْ

(١) انظر < فتح القدير > للشوكاني (٣ / ٥٠) ، و < تفسير الطبري > (١٣ / ٢٩٣) .

(٢) < تفسير الطبري > (١٣ / ٣٠٢) .

يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْتِسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ { يعني من فرج الله { إِنَّهُ لَا يَأْتِسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ } فلما دخلوا عليه في هذه المرة وقد أصابهم الفقر ؛ ليس لديهم ما يعوضون حتى يأخذوا الطعام والشراب إلا أشياء رديئة وقليلة { قَالُوا يَتَأْتِيهَا الْعَزِيزُ مَسْنًا وَأَهْلُنَا الضَّرُّ وَجِئْنَا بِبِضْعَةٍ مُزَجَّجَةٍ } رديئة { فَأَوْفٍ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقَ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ } عند ذلك لما رأى يوسف إخوانه بهذا الحال ، وبهذه المسكنة ، وبهذا الضعف ، وبهذا البلاء الذي نزل عليهم ، رَقَّتْ نَفْسُهُ ، وحنَّ قلبه ، وفاضت عينه بالدموع U ، ونطق من تَوَّها بالحقيقة التي أخفاها عنهم ، والتي خباها عنهم بأمر الله سبحانه وتعالى .

مطابقة يوسف e لإخوته بما فعلوه معه :

{ قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ } ما أعظم هذا الموقف ؟! وما أعظم هذه القصة ؟! فلما قال ذلك تفحصوا في وجهه ، تفحصوا في عينه ، تفحصوا في شكله ؛ فإذا هو يوسف ؛ عند ذلك عرفوه { قَالُوا أَيُنَاكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ } الله لا يضيع أجر المحسن ، فيا أيها المحسن في طاعتك ، في عبادتك ، مع الناس بأموالك ، لا يضررك أحد من خلق الله تعالى ، وانتظر من الله تبارك وتعالى العطاء والفضل { إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ } قاعدة عظيمة تكتب بماء الذهب ، تنقش في قلوبنا ، في بيوتنا ، في حياتنا ، { مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ } بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين ، بالصبر واليقين يحصل العز والتمكين ، بالصبر واليقين تنال سعادة الدارين .

ألا بالصبر تبلغ ما تريد وبالتقوى يلين لك الحديد
صبرٌ مع خوف من الله ، والتزامٌ بحدود الله ؛ { إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّكَ
اللَّهُ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ } .

عفو ومسامحة من يوسف U :

{ قَالُوا تَأَلَّوْا لَكَ اللَّهُ لَقَدْ مَاتَ لَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَطِئِينَ } اعترفوا
وأقروا بخطئهم ، وأقروا بفضلهم عليهم ؛ لأن الله اختاره نبياً ، ولم يختارهم لهذه
المكانة العظيمة { قَالَ لَا تَثْرِيْبَ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ } هكذا يكون الصالح ؛ يعفو عمن
ظلمه ؛ كما في حديث أبي هريرة **t** قال النبي **e** : (ثلاث من كنَّ فيه حاسبه
الله حساباً يسيراً ، وأدخله الله الجنة برحمته) قالوا : وما هي يا رسول الله ، بأبي
أنت وأمي ؟ قال : (تُعْطَى مِنْ حَرَمِكَ ، وَتُصَلَّ مِنْ قَطْعِكَ ، وَتُعْفَى عَنْ ظَلَمِكَ
، فَإِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ يُدْخِلَكَ الْجَنَّةَ) ^(١) .

هذه هي الصلة التي لا يفعلها إلا الخُصُّ من أهل الإيمان ، وإلا الصادقون
من عباد الله تبارك وتعالى ، { قَالَ لَا تَثْرِيْبَ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ
أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ } أَذْهَبُوا يَفْمِصِي هَذَا فَالْقُوْهُ عَلَى وَجْهِ إِي يَأْتِ بِصِيرٍ وَأَتُوْفِ
يَاهِلِكُمْ أَجْمَعِينَ } فأخذوا قميصه { وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ } يعني: خرجت
من أرض مصر، ويعقوب في صحراء الشام ، في فلسطين ، في بلاد كنعان ؛ أول
ما خرجت القافلة من مصر { قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ } نقل الله

(١) رواه البزار (١٩٠٦) ، والطبراني في الأوسط (٩٠٩) ، (٥٠٦٤) ، والحاكم وقال: صحيح الإسناد .

ريح يوسف ، وأرسل ريحاً تنقلها وتُعَجِّلُ بالبشرى قبل أن يأتي البشرى من الناس ، جاءت البشرى من الله قبل أن يأتي البشرى من الناس ، وهكذا المؤمن تأتيه البشرى في قلبه ، بأن الله سَيَفْرِّجُ عليه ، وسيأتيه النصر ، فيشعر بارتياح وبسعادة وبطمأنينة وبرضاً من الله U ، { وَلَمَّا فَصَلَ الْيُوسُفَ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ } يعني لولا أن تقولوا إنني أصابني التخريف { قَالُوا نَالَهُوَ إِنَّكَ لَمِنَ الضَّالِّينَ الْكَذِبِيِّينَ } إنك لفي خطئك وبعدك عن الصواب ، منذ زمان بعيد وأنت في هذا الخطأ ، وفي هذا البعد عن الصواب { فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا } البشرى هو ابنه الأكبر ؛ قال لهم : كما أني أحضرت لهم القميص الملطخ بالدم ، وفجعته في ولده ، فأريد أن أحضر له قميص يوسف ، حتى أكون أنا الذي أبشّره ، فأخذ ذلك القميص { فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَنْتُمْ أَقْلُ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ } قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ { الخاطئ : هو الذي يخطئ مع التعمد ، والمخطئ : الذي يخطئ من غير تعمد ، فهم كانوا خاطئين لأنهم تعمدوا الخطأ ؛ فقال لهم يعقوب U { قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ } لم يستغفر لهم في الحال ، لما كان في قلبه من الحزن ، ومن الغضب عليهم ، وقيل : إنه أراد أن يؤخر الاستغفار إلى وقت الأسحار ، لأن الاستغفار في وقت الأسحار يغفر الله تبارك وتعالى به لعباده ، كما كان يفعل عبد الله بن مسعود t وأرضاه وغيره من الصحابة الكرام رضوان الله عليهم ، وكذا السلف الصالح من بعدهم .

وقد قال الله U { وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ } ^(١) فَأَجَلَّ استغفاره لهم إلى وقت السحر .

لقاء يوسف لأبويه وتحقق الرؤيا :

{ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَىٰ أَبِيهِ أَبُوئِيْهُ } دخل يعقوب وكان متكئاً على ابنه الأكبر روبيل ؛ وخرج يوسف من مصر مع أربعة آلاف من جنوده وحشمه وخدمه ، فوقف يعقوب يسأل ولده : أهذا فرعون مصر ؟ أهذا ملك مصر ؟ فقال له روبيل : هذا ولدك يوسف ، قد من الله عليه .

فعند ذلك بادره ولده يوسف U { وَرَفَعَ أَبُوتِيْهُ عَلَى الْعَرْشِ } ^(٢) أي أجلسهما معه على كرسي حكمه وسلطانه { وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا } ^(٣) وكان السجود في ذلك الزمان ، وفي ذلك الشرع جائزاً ، وعلامةً على التكريم والاحترام ، ليس فيه عبودية ، ولكنه نسخ في شريعة الإسلام ، فلا يجوز السجود إلا لله تبارك وتعالى .

(١) آل عمران : ١٧ .

(٢) قال الحافظ ابن كثير رحمه الله : < في البداية والنهاية > (١ / ٢١٨) قيل : كانت أمه قد ماتت كما هو عند علماء التوراة . وقال بعض المفسرين فأحياها الله تعالى ، وقال آخرون : بل كانت حالته ليا ، والحالة بمثالة الأم . وقال ابن جرير وآخرون : بل ظاهر القرآن يقتضي بقاء حياة أمه إلى يومئذ ، فلا يُعوَّل على نقل أهل الكتاب فيما خالفه . وهذا قوي ، والله أعلم .

(٣) أي : سجد له الأبوان والإخوان الأحد عشر تعظيماً وتكريماً .

{ وَقَالَ يَتَابَتَ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ } وانظروا إلى هذا التعامل ، لم يشأ أن يذكر قصة إخوانه ، وأنهم رموه في البئر ، وأنهم فعلوا وفعلوا ، وإنما اختصر كلامه ونسب الأمر إلى الشيطان ولم ينسبه إلى إخوانه فقال { مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ } ثم ختم هذه القصة بعد أن مَنْ الله عليه بهذا الفرج ، وهذا النصر ، وهذا الخير بأنه أراد وأحب لقاء الله تبارك وتعالى ، لأنه علم وعرف أن هذه الدار ليست دار خلود ، وليست دار استقرار ، فلا يصح أن يركن إليها الإنسان ، { رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَكِوتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيَّ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ } فطلب لقاء الله ، وطلب جوار الله ، وطلب ما عند الله ، لأنه يعلم أن ما عند الله خير وأبقى مما في هذه الدار الفانية الزائلة ، فعليه وعلى نبينا محمد ﷺ أفضل الصلاة والسلام .

ثم بعد ذلك عاش بنو إسرائيل في مصر ، وكان عددهم لما دخلوها اثنين وسبعين من الرجال والنساء ، ولما خرجوا مع موسى ﷺ ، وعبروا عرض البحر ، ثم تبعهم فرعون ، كانوا قد بلغوا (ستمائة ألف) كما تذكر روايات المفسرين . ولما مات يعقوب ﷺ في مصر ، وكان قد أمر أن يُدفن مع أبيه إسحاق في أرض كنعان في أرض الشام ، ونفذ يوسف ﷺ وصية أبيه يعقوب .

قصة يوسف U من أدلة نبوة محمد e :

قال سبحانه : { ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ } وفي هذه الآية دلالة على نبوة النبي e ، إذ أن إخبار النبي e بقصة يوسف ، لم يكن عن مشاهدة منه لأحداثها ، فهو بينه وبين يوسف وإخوته أزمنة مديدة ، ولم يكن e يقرأ ويكتب حتى يعرف شيئاً عن قصة يوسف من كتب أهل الكتاب ، ولم يكن بين قوم لهم علم بأحوال الأمم السابقة ، فمن أين له أن يحدث بتفاصيل تلك القصة؟! والجواب : أنه الوحي من الله تبارك وتعالى ، كما قال سبحانه في هذه الآية : { ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ } ، وقوله سبحانه : { وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ } أي عزموا على إلقاء يوسف في البئر { وَهُمْ يَمْكُرُونَ } بيوسف U بإلقاءه والخلاص منه ، ويمكرون كذلك بيعقوب U حين جاؤوه بقميص يوسف U ملطخاً بالدم وقالوا : أكله الذئب !! .

أكثر الناس على غير الإيمان والجادة :

وقال سبحانه : { وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ } فعلى الرغم من أن إخباره e بتلك القصص التي هي من الغيب الذي لا يتأتى إلا بوحي من الله ، وهذا دليل على نبوته ؛ فأكثر الناس أعرضوا عن الإيمان بالنبي e ، واتباع هديه ، وهذا فيه من الفوائد أن اجتماع الكثيرين من الناس على أمر ما ، لا يدل على صواب ما اجتمعوا عليه ، وإنما الصواب ما دلَّ دليل الشرع

على أنه الصواب، فهذا كلام الله يقول: { وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ } .. وبعد آية فقط هنا في سورة يوسف يقول جل وعلا: { وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ } ويقول سبحانه في موضع آخر: { وَإِنْ تَطَّعَ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ لِيُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ } ^(١)، ويقول كذلك سبحانه: { وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرِينَ } ^(٢)، ويقول U: { وَمَا يَأْمَنُ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ } ^(٣) وغير ذلك كثير من الآيات، فالحق لا يعرف بكثرة أتباعه، وإنما بالدليل الشرعي الذي يدل على أنه الحق والصواب.

وقال سبحانه: { وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ } وما تسألهم على هذا القرآن الذي تتلوه عليهم، وعلى هذا الإيمان الذي تدعوهم إليه، من مال يعطونك إياه كما يفعلون مع أحبارهم، { إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ } هذا القرآن وما تحدثهم به من القصص والأحاديث { إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ } فهو ذكر لأهل الأرض جميعاً، وليس خاصاً بمن سمعوه من النبي e وحدهم.

وفي هذه الآية حثٌّ على الإخلاص وترغيبٌ فيه، وأن لا يبتغي الداعية بدعوته أجراً أو متاعاً من الدنيا الفانية، بل يبتغي الأجر كل الأجر من الله تبارك وتعالى.

(١) الأنعام: ١١٦.

(٢) سبأ: ١٣.

(٣) هود: ٤٠.

وقال جل وعلا : { وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴿١٠﴾ أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ } .

{ أَفَأَمِنُوا } هذا استفهام للإنكار ، والمعنى : هل عند أولئك الذين رفضوا الإيمان بالله ورسوله ، وأبوا إلا الشرك والكفر ، هل عندهم أمانٌ من عذاب الله تعالى بالصواعق ، والقوارع ، والزلازل ، والفيضانات ، والحروب ، والأمراض ، والكوارث ، وغيرها ؟! ، وهل عندهم أمانٌ أن لا تأتيهم الساعة بغتة وهم على كفرهم وباطلهم ؟! .

وفي الآية تخويفٌ من الله لعباده لأجل أن يؤمنوا به سبحانه ، ويتبعوا شرعه ودينه ، وهدى رسوله e ، قبل أن تفجأهم الساعة ، أو يأتيهم عذابٌ من ربهم جل وعلا .

الدعوة على بصيرة هي طريق النبي e وأتباعه :

وقال جل وعلا : { قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ } أي : قل يا محمد للمشركين ولغيرهم : هذه الدعوة إلى الله ودينه التي أدعوكم إليها ، هي طريقي وسنتي ، ثم يبين هذه الدعوة وهذا السبيل بقوله : { أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ } على حجة واضحة ، وعلى معرفة يتبين بها الحق من الباطل { أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي } فحقٌ على أتباع الرسول e أن يكون دعاءٌ إلى الله تعالى على بصيرة كما كان نبيهم e ، { وَسُبْحَانَ اللهِ } تنزيهٌ لله جل وعلا ، ومدحٌ وثناءٌ عليه سبحانه { وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ } الذين أشركوا مع الله غيره ، واتخذوا من دونه أنداداً .

وفي الآية حثٌ على الدعوة إلى الله تعالى بالعلم والبصيرة ، وبيان أن هذه سبيل أتباع الرسول e ، وسبيل الرسول e من قبلهم .

وقال سبحانه : { وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِيْ اِلَيْهِمْ مِنْ اٰهْلِ الْقُرْاٰنِ اَفَلَمْ يَسِيْرُوْا فِي الْاَرْضِ فَيَنْظُرُوْا كَيْفَ كَانَتْ عٰقِبَةُ الَّذِيْنَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْاٰخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِيْنَ اٰتَقَوْا اَفْاٰلًا تَعْقِلُوْنَ } فالرسل لم تكن من الملائكة كما طلب أهل الشرك أن يكون الرسول ملكاً ، ولم تكن من النساء ؛ ولم تكن من الجن ، بل من الإنس الرجال دون غيرهم .

التأمل والاعتبار مطلب شرعي :

{ اَفَلَمْ يَسِيْرُوْا فِي الْاَرْضِ فَيَنْظُرُوْا كَيْفَ كَانَتْ عٰقِبَةُ الَّذِيْنَ مِنْ قَبْلِهِمْ } أفلم يسر المشركون في الأرض فينظروا أحوال الأمم التي كذبت رسلها من قبلهم ، وكيف أهلكهم ربهم جل وعلا ، فيعتبروا بذلك ويؤمنوا ، ويخافوا أن يكون مصيرهم كمصير من سبقهم من الهلاك والعذاب والاستئصال .

{ وَلَدَارُ الْاٰخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِيْنَ اٰتَقَوْا اَفْاٰلًا تَعْقِلُوْنَ } وهذا تذكير لهم بأن الآخرة خيرٌ وأبقى لأهل التقوى والإيمان ، وأن صاحب العقل السليم يقدم الآخرة الباقية على الدنيا الفانية ، ويقدم طاعة الله على طاعة شيطانه وهواه .

وقال سبحانه : { حَتّٰى اِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوْۤا اَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوْۤا جَاءَهُمْ نَصْرًا مِّنْ نَّشْرٍ وَّلَا يَرَوْنَ اِلَّآ اِلٰهًا وَّحِدًا عَنِ الْكُوْفِ الْمُجْرِمِيْنَ } ، قوله سبحانه : { حَتّٰى اِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ } من النصر بعقوبة قومهم المكذبين لهم { وَظَنُّوْۤا اَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوْۤا

جَاءَهُمْ تَصَرُّفًا { وظنت الرسل أن أتباعهم كذبوهم ؛ جاءهم نصر الله عند ذلك { فَتُخَيَّرُ مَنْ نَاشَأُ } من أهل الإيمان { وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْفَاقِرِينَ } .

وفي الآية بيان لما تقدم ذكره من أن الشدة يعقبها التيسير ، وأن الضيق يأتي بعده الفرج ، وأنه كلما اشتدت الأمور كان ذلك إيذاناً بالفرج والمخرج .

وقال سبحانه : { لَقَدْ كُنَّا فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَعُ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهَذَا وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } قوله جل وعلا : { لَقَدْ كُنَّا فِي قَصَصِهِمْ } أي: قصص الرسل ومن بعثوا إليهم من أقوامهم ، وكذلك في قصص يوسف وإخوته وأبيه وما حصل معهم مما تقدم بيانه في تلك السورة { عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ } عبرة ؛ فكرة ، وبصيرة مخلصّة من الجهل والحيرة ، وأولو الألباب : أصحاب العقول السليمة ، الذين يعتبرون بعقولهم فيدرون ما فيه مصالح دينهم ودنياهم .

وإنما كان هذا القصص عبرة لما اشتمل عليه من الأخبار الصادقة المطابقة للواقع ، مع بُعد الفترة الزمنية بين النبي e وبين الرسل الذين قصّ علينا قصصهم ، ومنهم يوسف وإخوته وأبوه ، مع كونه لم يطلع على قصصهم ولا اتصل بأخبارهم ؛ ولهذا قال سبحانه : { مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَعُ } هذا القصص ، وهذا القرآن الذي فيه هذا القصص ؛ ما كان حديثاً يُفترى { وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ } من الكتب المنزلة كالزبور ، والإنجيل ، والتوراة { وَهَذَا وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } فهذا القرآن ، وهذا الذكر ، هداية ورحمة ونور وشفاء لأهل الإيمان دون غيرهم .

كانت هذه سورة يوسف ، وفيها قصة نبي الله يوسف **U** ، وفيها من العبر والعظات الشيء الكثير ، وكلما تأمل فيها المسلم ، وكلما قرأها المسلم ، سيجد فيها عبراً ، وسيجد فيها انشراح صدر ؛ كما كان النبي **e** يُذكرنا ، وكما كان الصحابة والسلف الصالح يقرءون هذه القصة على المحزون والمكروب والمهموم ، وإذا به تنفرج نفسه ، وينشرح صدره ، ويستريح خاطره .

أسأل الله أن أكون وإياك أخي القاريء من أهل الإيمان الذين ينتفعون بكلام ربهم الرحمن جل وعلا .. آمين .

نسأل الله تبارك وتعالى أن يشرح صدورنا ، وأن يفرج كربنا ،

وأن يبذل همومنا عزاً وفرجاً وسعادة ،

إنه على كل شيء قدير وبالإجابة جدير سبحانه وتعالى .

d n f

- ٥ مقدمة
- ٧ تمهيد
- ٨ سبب نزول السورة
- ٩ بدايات السورة
- ١٠ أحسن القصص
- ١٠ يوسف U والرؤيا
- ١١ كل ذي نعمة محسود
- ١٣ غيرة إخوة يوسف U ومكرهم
- ١٥ مؤامرة للخلاص من يوسف U
- ١٨ خلاص يوسف U من البئر
- ٢٠ يوسف U في بيت العزيز
- ٢١ محنة الشهوة والإغراء
- ٢٤ براءة يوسف U من الهم بالسوء
- ٢٧ مكر النساء وكيدهن
- ٣٣ يوسف U في محنة السجن
- ٣٥ دعوة يوسف U إلى الله في السجن

- يوسف U وتعبير الرؤيا ٣٧
- رؤيا الملك وتعبيرها ٤٠
- الإعلان ببراءة يوسف U وخروجه من السجن ٤٢
- العزُّ والتمكين بعد المحنة والابتلاء ٤٣
- لقاء يوسف U لإخوته بعد طول فراق ٤٤
- أخذ الأسباب للوقاية من العين ٤٧
- حيلة يوسف U لضم أخيه إليه ٤٨
- شدة البلاء تعقبه سرعة الفرج ٥١
- مصارحة يوسف U لإخوته بما فعلوه معه ٥٣
- عفو ومسامحة يوسف U ٥٤
- لقاء يوسف لأبويه وتحقيق الرؤيا ٥٦
- قصة يوسف U من أدلة نبوة نبينا محمد e ٥٨
- أكثر الناس على غير الإيمان والجادة ٥٨
- الدعوة على بصيرة هي طريق النبي e وأتباعه ٦٠
- التأمل والاعتبار مطلب شرعي ٦١
- فهرس ٦٤

